دِراسَاتٌ قُرآنِيَّةٌ (8)

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

(40 - 1)

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الـــكـــتـــاب: **دراسات قرآنية** (8)
سورة آل عمران (1 - 40)

تـــألـــيـــف: **الشيخ مصطفى قصير** قدس سره

مراجعة وتنسيق: **مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة**

إصـــــدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية**

الـطـبـعـة: الأولى - 2019م/1440هـ

تصميم وطباعة: DBOUK 009613336218

ISBN 978-614-467-???-?

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

موسوعة العلامة الشيخ مصطفى قصير العاملي

دراسات قرآنية (8)

سورة آل عمران

(1 - 40)

الجزء الثاني عشر

المعارف
دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

تمهيد 9
عمق المعنى وقلّة الوسيلة 9
فضل سورة آل عمران 13
مناسبات النزول 14
محاور السورة وموضوعاتها الرئيسيّة 18
الآيات (1-6) 18
الحروف المقطّعة في بدايات السور القرآنيّة 19
مصدّقاً 35
التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ 41
لكن هل يختلف الفرقان عن القرآن في المعنى؟ 42
علم الله 48
التصوير 51
الآية (7) 53
حكمة وجود المتشابه في القرآن 58
أهل الزيغ والمتشابهات 61
التأويل في القرآن 63
التأويل 63
الراسخون في العلم 66
من هم الراسخون في العلم؟ 67
نماذج من الآيات المتشابهات 67
الآيتان (8-9) 70
الآيتان (10-11) 73

الكفر 73
الاغترار بالأموال والأولاد 75
فرعون 77
الآيتان (12-13) 81
مناسبات النزول 82
معاني المفردات 84
جهنّم 85
ما المراد من الذين كفروا؟ 86
الآية (14) 92
المفردات 92
التّفسير 94
الآيات (15-17) 104
المفردات: 104
التفسير 109
الآية (18) 114
التفسير 116
كيف يشهد الله -تعالى- على وحدانيّته؟ 117
شهادة الملائكة 117
شهادة أولي العلم 118
الآية (19) 120
التفسير 121
سَرِيعُ الْحِسابِ 125
الآية (20) 128
التفسير 129
أسلوب المحاججة الوارد في القرآن له أكثر من دلالة: 129
نماذج من الحوارات الاحتجاجيّة القرآنيّة 130
التسليم لأمر لله 130
الآيتان (21-22) 132
التفسير 133
الآيات (23-25) 138

أسباب النزول 140
التفسير 141
ما الكتاب الذي دُعوا إليه، هل هو التوراة أم القرآن؟ 142
الآيتان (26-27) 144
فضل الآية 146
سبب النزول 147
التفسير 150
جولة في الاستعمالات القرآنيّة للملك 152
الآيات القرآنيّة في المشيئة الإلهيّة 155
العزّ والذّل 159
بيدك الخير 161
الآية (28) 165
البيان: 165
النظم 181
التقيّة في الإسلام 183
الآيتان (29-30) 184
التفسير 184
الإخفاء في الصدر 184
لكن كيف تكون الأعمال حاضرة؟ 185
الآيتان (31-32) 187
كيف يتكوَّن الحبّ؟ 188
العلاقة بين المحبّة والانقياد 189
محبّة الله لعباده 190
الآيتان (33-34) 191
من هم آل ابراهيم ومن هم آل عمران؟ 193
بماذا اصطفاهم؟ 194
لماذا ذكر آدم ونوحاً بالاسم وأشار إلى الباقين من الأنبياء بالآل؟ 195
الآيات (35-37) 196
الآيات (38 - 40) 205
المصادر والمراجع 209

تمهيد

ممّا يجدر الإشارة إليه، بل التأكيد عليه منذ البداية أنّ هذه المحاولات التفسيريّة ليست ممّا أَزعم علمه، ولا ممّا أَقدر عليه، فابتعاداً عن تفسير القرآن بالرأي، ومُجانبةً لادّعاء العلم بالقرآن، وعملاً بنهي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام عن تفسير القرآن الكريم ما لم نفقهه عن عالِم، إنّ هذه الكلمات لا تعدو أن تكون نقلاً لِمَا أفاضه المفسّرون، وتلخيصاً لِمَا أوردوه، وجولةً فيما حبّروا به مصنّفاتهم، ويبقى للعاقل أنْ يتأمّل ويتدبّر ويتّعظ، ويأخذ منه ما وَسِعه إدراكه، وتحمّله قلبه وعقله.

عمق المعنى وقلّة الوسيلة

ولولا أمر الباري -عزّ وجلّ- بالتدبّر بآيات القرآن لكان الأجدر بالمرء أن يُصاب بالإحباط، ويعترف بالعجز أمام عظمة القرآن وعمق معانيه وسِعَة آفاقه، حتّى وكأنّنا نمسك بطرف خيط لا ندري إلى أين ينتهي.

فالقرآن «**له ظهر وبطن ولكلّ بطن بطن**»[1].

و﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[2]، و﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[3].

وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام: «**ما من أمرٍ يختلف فيه اثنان إلّا وله أصل في كتاب الله -عزّ وجلّ- لكنّه لا يبلغه عقول الرجال**»[4].

وعنه عليه السلام: «**إنّ الله -تبارك وتعالى- أنزل القرآن تبيان كلّ شيء، حتّى وأنّه ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، لا يستطيع عبد أن يقول لو كان هذا أُنزل في القرآن إلّا وقد أنزل الله فيه**»[5].

فالعبرة في استخراج ذلك، وأنّى لنا نحن القاصرين أن نحيط بالظاهر فضلاً عن الباطن، وبالسطح فضلاً عن العمق.

(1) الكوفيّ، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفيّ، تحقيق: محمّد الكاظم، مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ، إيران - طهران، 1410هـ ق - 1990م، ط1، ص17.
(2) سورة النحل، الآية 89.
(3) سورة الأنعام، الآية 38.
(4) الكلينيّ، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، إيران - طهران، 1363ش، ط5، ج1، ص60.
(5) المصدر نفسه، ص59.

سورة آل عمران[1]

(1) لم يُكمل سماحة الشيخ قدس سره تفسير هذه السورة المباركة.

السورة مدنيّة بإجماع المفسّرين، خاصّة أنّ فيها ذكراً للمباهلة وبدر وأُحُد، وهي أحداث مدنيّة، وفيها خصائص السور المدنيّة.

سُمّيت بسورة آل عمران؛ لأنّ فيها ذكر آل عمران بالجملة والتفصيل (آل عمران، زوجة عمران، مريم بنت عمران، فضلاً عن زكريّا وعيسى)، وفي غيرها من السور ذكر لمريم فقط؛ كسورة التحريم. وقد وردت التسمية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما يأتي في فضلها.

فضل سورة آل عمران

روي عن أبي بصير، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من قرأ سورة البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيمة تظلّانه على رأسه مثل الغمامتَيْن أو مثل الغيابتَيْن**»[1].

ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**من قرأ هذه السورة أعطاه الله بكلّ حرف أماناً من حرّ جهنم، وإن كُتبت بزعفران، وعُلّقت على امرأة لم تحمل، حملت بإذن الله -تعالى-، وإن عُلّقت على نخل أو شجر يرمي ثمره أو ورقه، أمسك بإذن الله -تعالى-**»[2].

(1) العياشيّ، محمّد بن مسعود، تفسير العياشيّ، تحقيق: الحاج السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، إيران - طهران، 1422هـ.ق، ط1، ج1، ص161.
(2) البحرانيّ، السيّد هاشم الحسينيّ، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، إيران - قم، لا. ت، لا. ط، ج1، ص594.

وفي مجمع البيان: روى أُبيّ بن كعب، عن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ سورة آل عمران أُعطي بكلّ آية منها أماناً على جسر جهنم**»[1].

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلّى الله عليه وملائكته حتّى تجب الشمس**»[2]. وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعلّموا سورة البقرة وسورة آل عمران، فإنّهما الزهراوان، وأنّهما تظلّان صاحبهما يوم القيامة كأنّهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صوّاف**»[3].

مناسبات النزول

ورد أنّها نزلت في وفد نجران لمّا وفدوا على رسول الله ﷺ في المدينة. قال الطبريّ في تفسيره: حدّثنا محمّد بن حميد، قال: حدّثنا سلمة بن الفضل، قال: حدّثني محمّد بن إسحاق، عن محمّد بن جعفر، قال: قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران، ستّون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم

(1) الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصائيّين، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1، ج2، ص232.
(2) الطبرانيّ، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفيّ، دار إحياء التراث العربيّ، لا. م، لا. ت، ط2، ج11، ص40.
(3) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد، دار صادر، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط، ج5، ص348.

والذي لا يصدرون إلّا عن رأيه، واسمه عبد المسيح. والسيّد ثمالهم، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم. وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتّى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانيّة قد شرفوه ومولّوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لِمَا يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه.

قال ابن إسحاق: «قال محمّد بن جعفر بن الزبير: قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه في مسجد رسول الله ﷺ حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية، في [جمال رجال] بلحارث بن كعب. قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم! وقد حانت صلاتهم، فقاموا يصلّون في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **دعوهم**، فصلّوا إلى المشرق. قال: وكانت تسمية الأربعة عشر منهم الذين يؤول إليهم أمرهم: العاقب، وهو عبد المسيح، والسيّد، وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيس، ويزيد، ونبيه، وخويلد بن عمرو، وخالد، وعبد الله، ويحنس في ستّين راكباً.

فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيهم السيّد، وهم من النصرانيّة على دين الملك مع اختلاف من أمرهم، يقولون: هو الله، ويقولون: هو وُلد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصرانيّة.

فهم يحتجّون في قولهم: هو الله، بأنّه كان يُحيي الموتى، ويُبرئ الأسقام، ويُخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ثمّ ينفخ فيه فيكون طائراً، وذلك كلّه بإذن الله، ليجعله آية للناس. ويحتجّون في قولهم: إنّه وُلد الله، أنّهم يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلّم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من وُلد آدم من قبله. ويحتجّون في قولهم: إنّه ثالث ثلاثة، بقول الله -عزّ وجلّ-: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلّا فعلت، وأمرت، وقضيت، وخلقت، ولكنّه هو وعيسى ومريم. ففي ذلك كلّه من قولهم قد نزل القرآن، وذكر الله لنبيّه ﷺ فيه قولهم.

فلمّا كلّمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ: **أسلِمَا**، قالا: قد أسلمنا. قال: **إنّكما لم تُسلما، فأسلِمَا**، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: **كذبتما، يمنعكما من الإسلام ادّعاؤكما لله -عزّوجلّ- ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير**، قالا: فمن أبوه يا محمّد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما، فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كلّه، صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، فافتتح السورة بتبرئة نفسه -تبارك وتعالى- ممّا قالوا، وتوحيده إيّاها بالخلق والأمر، لا شريك له فيه، وردّاً عليهم ما ابتدعوا من الكفر، وجعلوا معه من الأنداد، واحتجاجاً عليهم بقولهم في صاحبهم، ليعرّفهم بذلك ضلالتهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي ليس معه شريك في أمره»[1].

(1) الطبريّ، محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1415هـ ق - 1995م، لا. ط، ج3، ص220-222.

وقال: «حدّثني المثنى، قال: حدّثنا إسحاق، قال: حدّثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه أبي جعفر، عن الربيع في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ قال: إنّ النصارى أتوا رسول الله ﷺ، فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلّا هو، لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، فقال لهم النبيّ ﷺ: **ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا وهو يشبه أباه؟** قالوا: بلى، قال: **ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟** قالوا: بلى، قال: **ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟** قالوا: بلى، قال: **فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟** قالوا: لا، قال: **أفلستم تعلمون أنّ الله -عزّوجلّ- لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟** قالوا: بلى، قال: **فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلّا ما علم؟** قالوا: لا، قال: **فإنّ ربّنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون ذلك؟** قالوا: بلى، قال: **ألستم تعلمون أنّ ربّنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يُحدِث الحَدَث؟** قالوا: بلى، قال: **ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امرأة كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غُذّي كما يُغذّى الصبيّ، ثمّ كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب، ويُحدث الحَدَث؟**، قالوا: بلى، قال: **فكيف يكون هذا كما زعمتم؟** قال: فعرفوا ثمّ أبوا إلّا جحوداً، فأنزل الله -عزّ وجلّ-: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾»[1].

(1) الطبريّ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصدر سابق، ج1، ص222.

محاور السورة وموضوعاتها الرئيسيّة

1- إثبات وحدانيّة الله -تعالى- وإقامة الأدلّة على ذلك. وهي السورة الوحيدة التي فصّلت بين الحروف المقطّعة وذكر الكتاب بكلمة التوحيد، وذكرت فيها الشهادة بالتوحيد خمس مرّات[1].

2- تكرّر في هذه السورة ذكر الإسلام والمسلمين وفعل "أسلم" أكثر من أيّ سورة أخرى[2].

3- ذكر وحدة الدين الحقّ ووحدة الرسالات[3].

4- ذكر حقيقة الموت[4].

5- تتمحور السورة أيضاً حول عيسى بن مريم عليه السلام.

الآيات (1-6)

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾:

تفسير آية البسملة مرّ في تفسير الفاتحة، فراجع[5].

(1) سورة آل عمران، الآيات 2، 6، 18 (مرتين)، 62.
(2) سورة آل عمران، الآيات 19، 20 (مرتين)، 52، 64، 67، 80، 83، 84، 85، 102.
(3) سورة آل عمران، الآيات 81، 83،85.
(4) سورة آل عمران، الآيات،143 - 168،145، 169، 185.
(5) راجع: الجزء السادس من هذه الموسوعة، ص69.

﴿الٓمٓ﴾:

مرَّ في مطلع سورة البقرة التعرّض لتفسيرها والأقوال فيها، وفي الحروف المقطّعة في بدايات السور، ونعيده هنا كما ورد لمن لم يطّلع عليها.

الحروف المقطّعة في بدايات السور القرآنيّة

جاء في هامش البرهان: اختلف العلماء في الحروف المعجمة، المفتتحة بها السور، فذهب بعضهم إلى أنّها من المتشابهات التي استأثر الله -تعالى- بعلمها، ولا يعلم تأويلها إلّا هو، وهذا هو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام[1].

وروت العامّة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّي**»[2].

وعن الشعبيّ، قال: «لله في كلّ كتاب سرّ، وسرّه في القرآن سائر حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور»[3].

دار الجدل حول مداليل الحروف المقطّعة التي تفتتح بها تسع وعشرون سورة من القرآن الكريم، وقد تعدّدت الآراء والوجوه في تفسيرها وبيان المقصود منها، نقل السيّد الطباطبائيّ عدداً منها[4]،

(1) السيد البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص122.
(2) الشيخ الطبرسي، تفسير مجمع البيان، مصدر سابق، ج1، ص75.
(3) السيد البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص123.
(4) الطباطبائيّ، العلاّمة السيّد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط5، ج18، ص6 - 7.

ونقل غيره عدداً آخر، وأهمّها ما يلي:

1- إنّها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلّا الله -تعالى-. وهذا القول مبنيّ على مذاق الذين يرون أنّ المتشابه لا يعلم تأويله إلّا الله، وقد أثبتنا عدم صحّة ذلك، ومن جهة أخرى فإنّ كون هذه الحروف من المتشابه لا يصحّ؛ لأنّ التشابه في تعدّد المدلول لا في خفاء أصله. وقال المجلسيّ إنّه مرويّ[1].

2- إنّها أسماء السور التي وقعت في أوائلها. وهذا الوجه ليس عليه دليل إلّا ما اشتُهر من تسمية بعض السور بذلك؛ كسورة (ق)، وسورة (طه)، وسورة (يس) وغيرها. والتسمية بذلك ربّما كانت متأخّرة عن النزول، ومع ذلك لا بدّ من أن تكون لها مداليل غير التسمية، خاصّة أنّ بعض تلك السور المفتتحة بالحروف لم تُسمَّ بها.

3- إنّها اسم لمجموع القرآن. وهذا لا دليل عليه إلّا كون بعض السور بعد إدراج الحروف يخبر عنها بأنّها الكتاب أو التنزيل وما شابه، وهذا لا يدلّ على أنّها أسماء، بل يدلّ على شيء آخر سيأتي في آخر الوجوه.

4- إنّها أسماء أو إشارات لله -سبحانه وتعالى-، فـ﴿الٓمٓ﴾ معناها أنا الله الملك، و﴿الٓمٓرٰ﴾ معناها أنا الله أعلم وأرى، و﴿الٓمٓصٓ﴾ أنا الله أعلم وأفصل، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ الكاف كافٍ، والهاء هادٍ، والياء وليّ، والعين عالِم، والصاد صادق الوعد، وأمثال ذلك مما هو مرويّ[2].

(1) راجع: المجلسيّ، العلامة محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ.ق - 1983م، ط2، ج88، ص10.

(2) راجع: السيد البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص131.

فعن ابن بابويه، قال: أخبرنا أبو الحسن محمّد بن هارون الزنجانيّ، فيما كتب إليَّ على يدي عليّ بن أحمد البغداديّ الورّاق، قال: حدّثنا معّاذ بن المثنى العنبريّ، قال: حدّثنا عبد الله بن أسماء، قال: حدّثنا جويريّة، عن سفيان بن سعيد الثوريّ، قال: قلت لجعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام: ما معنى قول الله -عزّ وجلّ- ﴿الٓمٓ﴾؟ قال عليه السلام: «**أمّا ﴿الٓمٓ﴾ في أوّل البقرة؛ فمعناه: أنا الله الملك، وأمّا في أوّل آل عمران؛ فمعناه: أنا الله المجيد**»[1].

5- إنّها حروف اسم الله الأعظم مقطّعة في القرآن، لو أحسن تأليفها لعلُم، وروي أنّه يؤلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليه السلام، ويدعو به فيُجاب. فعن عليّ بن إبراهيم بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**﴿الٓمٓ﴾ هو حرف من حروف اسم الله الأعظم، المقطّع في القرآن، الذي خوطب به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإمام، فإذا دعا به أُجيب**»[2].

6- إنّها قسَم بهذه الحروف لكونها شريفة، حيث إنّها مباني كتب الله المنزلة، وأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولكنّ هذا الوجه لا دليل عليه؛ لأنّه لا يظهر أنّها قسَم، إلّا بتكلّف، وما في الرواية[3] لا يظهر منه ذلك.

---

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1379هـ.ق - 1338 ش، لا. ط، ص22.

(2) القمّيّ، عليّ بن إبراهيم، تفسير القمّيّ، تصحيح وتعليق وتقديم: السيّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ.ق، ط3، ج1، ص30.

(3) راجع: الشريف الجرجانيّ، علي بن محمد، الحاشية على الكشّاف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، عبّاس ومحمّد محمود الحلبيّ وشركاهم - خلفاء، 1385 - 1966م، لا. ط، ص90-91.

7- إنّها ترمز إلى مدّة الأقوام والدول وأعمارهم، لكنّ تطبيقها لا يعرفه إلّا المطّلع على أسرار الكتاب من النبيّ وآله ﷺ، وهو مرويّ[1].

8- إنّها إشارة إلى مدّة بقاء هذه الأمّة، كما في روايةٍ أنّ اليهود جاؤوا إلى الرسول ﷺ، وزعموا أنّ ﴿الٓمٓ﴾ مدّة ملك محمّد ﷺ، وهي إحدى وسبعون، فأوكل رسول الله ﷺ الإجابة إلى الإمام عليّ عليه السلام، فقرأ عليهم الإمام عليّ عليه السلام بقيّة الفواتح فأُفحِموا[2]، لكن ليس في الرواية أنّ رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وافقا على ذلك، وإنّما هم الذين زعموا أنّه كذلك تثبيطاً للمؤمنين، وقراءة الإمام عليه السلام لباقي فواتح السور قد يكون لإفحامهم وإبطال مزاعمهم باللغة التي احتجّوا بها، وليس فيه أيّ إقرار بذلك.

9- إنّها تسكين للكفّار الذين كانوا يحاولون التشويش على قراءة القرآن، وكانوا تواصوا ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾[3]، فإذا سمعوا الحروف استغربوها وانشغلوا بها، فيقرع القرآن

(1) راجع: العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج2، ص3؛ البرقيّ، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسينيّ، دار الكتب الإسلاميّة، إيران - طهران، 1370هـ.ق - 1330 ش، لا. ط، ج1، ص270.

(2) راجع: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، مدرسة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، إيران - قم المقدّسة، ربيع الأول 1409هـ.ق، ط1، ص65؛ الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1379هـ.ق - 1338 ش، لا. ط، ص26.

(3) سورة فصّلت، الآية 26.

مسامعهم[1]. وهذا أيضاً لا دليل عليه، ولا يساعد على ذلك التاريخ.

10- إنّها إشارة إلى المعاني المهمّة في السورة، فـ﴿نٓ﴾ مثلاً إشارة إلى النصر الموعود فيها، و﴿قٓ﴾ إشارة إلى القرآن أو القهر وأمثال ذلك[2]. وهذا أيضاً لا يعدو كونه استحساناً بلا دليل.

11- إنّها ليست سوى الحروف التي تشكّل مباني اللغة العربيّة، جيء بها للتدليل على أنّ القرآن الكريم الذي تحدّى العرب بالإتيان بسورة من مثله، إنّما هو مبنيّ على قواعدهم، ومؤلّف من حروف لغتهم التي يعرفونها، وليست سوى هذه الحروف، وهذا زيادة في التعجيز والتحدّي.

ويساعد على هذا الوجه أمور عدّة:

الأوّل: إنّه مرويّ عن الإمام العسكريّ عليه السلام حيث يقول: «**كذبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا سحر مبين تقوّله، فقال الله:** ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾**؛ أي يا محمّد، هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو بالحروف المقطّعة التي منها: ألف - لام - ميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فَأْتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم. ثمّ بيّن أنّهم لا يقدرون عليه:** ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[3]»[4].

(1) راجع: العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج18، ص7.
(2) المصدر نفسه.
(3) سورة الإسراء، الآية 88.
(4) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص24، التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص62.

وعن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**إنّ الله -تبارك وتعالى- أنزل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها جميع العرب**، ثمّ قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾»[1].

الثاني: في جميع السور التي وقعت الحروف المقطّعة في فواتحها باستثناء اثنتين أو ثلاثة، نجد الآيات التي وقعت بعد هذه الحروف تتحدّث عن الكتاب وآياته أو القلم، أو القرآن أو التنزيل.

وهذه هي الآيات:

1. ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾[2].
2. ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾[3].
3. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[4].
4. ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾[5].
5. ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[6].
6. ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾[7].
7. ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾[8].

---

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، التوحيد، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، لا. ت، لا. ط، ص234.
(2) سورة البقرة، الآيتان 1 - 2.
(3) سورة لقمان، الآيتان 1 - 2.
(4) سورة يونس، الآية 1.
(5) سورة الأعراف، الآيتان 1 - 2.
(6) سورة هود، الآية 1.
(7) سورة الزخرف، الآيات 1 - 3.
(8) سورة الدخان، الآيات 1 - 3.

8. ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[1].
9. ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[2].
10. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[3].
11. ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾[4].
12. ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾[5].
13. ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾[6].
14. ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾[7].
15. ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[8].
16. ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾[9].
17. ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾[10].
18. ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾[11].
19. ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[12]. ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾[13].

---

(1) سورة ص، الآية 1.
(2) سورة القلم، الآية 1.
(3) سورة يوسف، الآية 1.
(4) سورة إبراهيم، الآية 1.
(5) سورة الحجر، الآية 1.
(6) سورة السجدة، الآيتان 1 - 2.
(7) سورة فصلت، الآيتان 1 - 2.
(8) سورة غافر، الآيتان 1 - 2.
(9) سورة الجاثية، الآيتان 1 - 2.
(10) سورة الأحقاف، الآيتان 1 - 2.
(11) سورة الشورى، الآيات 1 - 3.
(12) سورة الرعد، الآية 1.
(13) سورة الشعراء، الآيتان 1 - 2.

20. ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾[1].
21. ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾[2].
22. ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾[3].
23. ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[4].
24. ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾[5].
25. ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾[6].

وحتّى تلك السور الثلاث فيها من الإخبارات أو الحكم التي تذكر بعد هذه الحروف فيه من الإعجاز ما يكفي لأن يجعل تركيبها من أمثال تلك الحروف المذكورة، وعجز الغير عن الإتيان بمثلها؛ كافياً عن التصريح بذلك، مثل الروم ومثل آل عمران التي فيها في الآية الثالثة ذكر التنزيل. والآيات هي:

1. ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾[7].
2. ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾[8].
3. ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾[9].

(1) سورة النمل، الآية 1.
(2) سورة القصص، الآيتان 1 - 2.
(3) سورة يس، الآيتان 1 - 2.
(4) سورة ق، الآية 1.
(5) سورة مريم، الآيتان 1 - 2.
(6) سورة طه، الآيتان 1 - 2.
(7) سورة آل عمران، الآيات 1 - 3.
(8) سورة العنكبوت، الآيتان 1 - 2.
(9) سورة الروم، الآيتان 1 - 2.

الثالث: إنّ وقوع اسم الإشارة في بعض الآيات المتقدّمة بعد الحروف المقطّعة ممّا يتلاءم مع هذا الوجه، ليكون إشارة إلى الحروف المقطّعة، وإخباراً عنها بأنّها هي الكتاب. وحتّى ما ليس فيه اسم إشارة كقوله -تعالى-: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أعربه الفرّاء وغيره[1] على أنّه خبر مبتدؤه الحروف نفسها، وهو المناسب لما تقدّم.

ثمّ إنّ ما ورد في معظم الوجوه السابقة المرويّة لا ينافي هذا الوجه، بل يجتمع معه، فإنّه يمكن أن تتعدّد الأغراض والمداليل فيها دون أيّ محذور، ففي الوقت ذاته يكون إيرادها لبيان تركيب الكتاب من هذه الحروف، ومع ذلك تتضمّن الإشارة إلى أسماء الله الحسنى مثلاً، وإلى الاسم الأعظم، وغير ذلك ممّا ورد في بعض الوجوه المرويّة المتقدّمة.

نُقِل في «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل»[2] عن الدكتور رشاد خليفة بحثٌ عدديٌّ تناول المقارنة بين الحروف المقطّعة في بداية السورة ونسبة ورود هذه الحروف في تلك السورة، وأضفى على ذلك هالة من التقدير والمدح بما نتوقّف عنده، وقد لا نوافق عليه.

وهو أمر قابل للتحقّق؛ لأنّه عمل حسابيّ بسيط، ولكنّه طويل تختصره الحواسب الإلكترونيّة، فإذا صحّت الحسابات المذكورة

(1) راجع: الفرّاء، يحيى بن زيّاد، تحقيق: أحمد يوسف النجاتيّ؛ محمّد عليّ النجار؛ عبد الفتّاح إسماعيل الشلبيّ، دار المصريّة للتأليف والترجمة، مصر، لا. ت، ط1، ج1، ص10؛ الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص78.

(2) الشيرازيّ، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، لا. ن، لا. م، لا.ت، لا. ط، ج2، ص379 - 384.

فهي لا تنقض ما تقدّم من وجوه، بل تجتمع معها ولا تنافيها، وربما أيّدت ذلك الوجه الأخير.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾:

تقدّم تفسيرها عند تفسير آية الكرسي[1]. ونعيده هنا للفائدة والتذكّر.

﴿ٱللَّهُ﴾:

اسم الجلالة المختصّ به -تعالى- ومعناه المستحقّ للعبادة.

اللغة: في مجمع البحرين: «الإله: المعبود، وهو الله -تعالى-، ثمّ استعاره المشركون لما عبدوا من دونه. وإله على فعال بمعنى مفعول؛ لأنّه مألوه؛ أي معبود، ككتاب بمعنى مكتوب، وإمام بمعنى مؤتمٌّ به، فلمّا أُدخلت عليه الألف واللام حُذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام، ولو كانتا عوضاً منها لما اجتمعت مع المعوّض في قولهم (الإله). وقطعت الهمزة في الابتداء للزومها تفخيماً لهذا الاسم»[2].

وفي لسان العرب: «الله: أَصله إلاهٌ، على فِعالٍ بمعنى مفعول، لأَنّه مأَلُوه؛ أَي معبود، كقولنا إمامٌ فِعَالٌ بمعنى مَفْعول؛ لأَنّه مُؤْتَمّ به، فلما أُدخلت عليه الأَلف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام، ولو كانتا عوضاً منها لما اجتمعتا مع المعوَّض منه في قولهم الإِلاهُ. وقطعت الهمزة في النداء للزومها تفخيماً لهذا الاسم»[3].

(1) راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة، ص60.
(2) الطريحيّ، الشيخ فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيّد أحمد الحسينيّ، نشر مرتضويّ، لا. م، 1362 ش، ط2، ج6، ص339 - 340.
(3) ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران - قم، 1405هـ.ق، لا. ط، ج13، ص470.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

كلمة التوحيد، ونفي الوصف عن غيره نفياً كلّيّاً وقطعيّاً، فالنكرة في سياق النفي تفيد نفي الجنس بشكل كلّيّ. وهنا ليس نفي الوجود، بل نفي الإمكان والثبوت. والاستثناء من هذا النفي يفيد الحصر، فالألوهيّة منحصرة فيه لا تصحّ لغيره -تعالى- على الإطلاق، وهو التوحيد.

﴿ٱلۡحَيُّ﴾:

لا ينطبق الوصف بمعناه التامّ والكامل إلّا عليه -تعالى-، بل لا ينطبق حتّى بشكل جزئيّ على غيره على نحو الحقيقة والحياة الواقعيّة، إذ إنّ حياة الأحياء مستمدّة من حياته -تعالى-، ومن إرادته وإحيائه، فهي حياة بالغير، وحياة محدودة موقّتة مشوبة بالموت.

وحياته -تعالى- ثابتة ذاتيّة أزليّة سرمديّة ليست مضافة، ولا عارضة، ولا طارئة، ولا مستندة إلى غيره، بل هي ذاتيّة له.

وحياته -تعالى- غير مشوبة بأيّ شكل من أشكال النقص (الموت).

بينما حياة مخلوقاته حادثة مستمدّة منه، مستندة إليه مهما طالت، وهي ناقصة مشوبة بالموت، فيمكن أن تسلب عن مثل هذه الحياة الحقيقة والكمال. حتّى الحياة الأخرويّة التي لا يعتريها الموت، هي حياة بالغير وليست بالذات.

ومن هنا صحّ أن يقال إنّ وصفه -تعالى- بالحيّ (مُعرّف) فيه قصر حقيقيّ يعني الله... الحيّ، فلا حيّ (حياة حقيقيّة ذاتيّة أبديّة دائمة) إلّا هو، وما عداه فالحياة من إفاضته، وهي مستندة إليه، فلا يُقابل بها ولا يُقارن.

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾:

اللغة: وصف مبالغة من القيام. والقيام على الشيء فيه قدرة وهيمنة وعناية ورعاية وتدبير. وهو -تعالى- القيّوم على الموجودات كلّها؛ لأنّه الخالق لها والموجد، ولأنّه بيده ملكوت كلّ شيء، ولأنّه -تعالى- قادر على كلّ شيء، ولأنّه عليم بكلّ شيء، ولأنّه محيط بكلّ شيء، فهو قيّوم على كلّ شيء، ولا يستغني عن قيمومته شيء، ولا يخرج من دائرة هذه القيمومة شيء.

وأصل «قيّوم» قيّووم على وزن فيعول، فقلبت الواو الأولى ياءً؛ لأنّ ما قبلها ياء ساكنة، وأُدغمت نحو سيّد وميّت.

في التبيان: «القيّوم» قيل في معناه قولان:

أحدهما: القائم بتدبير عباده في ما يضرّهم وينفعهم، وهو قول مجاهد، والربيع، والزجّاج، بدلالة قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[1]، و﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾[2].

الثاني: حكي عن محمّد بن جعفر بن الزبير، واختاره الجبائيّ، أنّه الدائم.

(1) سورة آل عمران، الآية 18.
(2) سورة الرعد، الآية 33.

ولعلّ هذا الثاني من باب التفسير باللازم؛ لأنّ الحياة والدوام والقدرة والعلم من مستلزمات القيّوميّة[1].

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

عبّر القرآن الكريم عن إفاضة الكتاب من الله -عزّ وجلّ- على قلب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالتنزيل. والتنزيل يفترض جهة عالية مرتفعة يتمّ النزول منها، وجهة منخفضة سافلة ينزل إليها، تلك الجهة ليس بالضرورة أن يكون علوّها علوّاً ماديّاً، فقد يكون مقاماً ومنزلة ومكانة رفيعة، وهي هنا كذلك لتتناسب مع شأن المولى -عزّ وجلّ- الذي لا يجوز عليه ما يستلزم المكان والجهة.

وهل يستلزم التنزيل التكرار بأن يكون الإنزال بعد الإنزال بأيّ اعتبار من اعتبارات التكرار، بأن يكون للمنزّل أجزاء يتدرّج إنزالها حتّى يكتمل، أو يكون بتكرار الإنزال؟

بحث أطال فيه عدد من المفسّرين، ورتّبوا على ذلك نتائج تتعلّق بالنزول الدفعيّ والتدريجيّ. وقد ناقشت ذلك في كتابِي «الوجيز في علوم القرآن»[2].

وفي الخلاصة، إنّ النازل قد يلحظ بمجموعه فيعبّر عنه بالنزول والإنزال، ولو كان ممتدّاً على فترة زمنيّة طويلة، وعندئذٍ يصحّ جعل ظرف النزول الزمانيّ أوّل وقت النزول، كما يقال: وقعت الحرب في اليوم الفلانيّ مع أنّها تمتدّ لأيّام وشهور، بل سنوات، ونزل المطر في

(1) الطوسيّ، الشيخ محمّد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العامليّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، لا. م، 1409هـ.ق، ط1، ج2، ص390.
(2) راجع: الجزء الخامس من هذه الموسوعة، ص33.

الساعة الفلانيّة مع امتداد فترة النزول إلى ساعات، بل أيّام.

وقد استعرضنا الاستعمالات القرآنيّة للتنزيل والإنزال:

قال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[1].

وقال: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾[2].

وقال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾[3].

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ التنزيل في النزول الدفعيّ في قوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾[4].

فلو كان التنزيل منحصراً في التدريجيّ لكان الأَوْلى هنا استعمال لفظ «أُنزِل» بدلاً من «نُزِّل»، والله العالم.

وقال -تعالى- في المائدة التي سألها الحواريّون: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾[5].

(1) سورة البقرة، الآية 22.
(2) سورة الزخرف، الآية 11.
(3) سورة لقمان، الآية 34.
(4) سورة الفرقان، الآية 32.
(5) سورة المائدة، الآيات 112 - 114.

فاستعمل التنزيل والإنزال في مورد واحد ومتعلّق واحد هو المائدة.

واستعمل القرآن التنزيل في نزول آية واحدة: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

فعليه، لا يمكن ترتيب نتائج قطعيّة على مجرّد استعمال إحدى الصيغتَيْن دون دليل آخر.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

اللغة: الكِتابُ لغة: «معروف، والجمع كُتُبٌ وكُتْبٌ، كَتَبَ الشيءَ يَكْتُبه كَتْباً وكِتاباً وكِتابةً، وكَتَّبه: خَطَّه...، قال الأَزهريّ: الكِتابُ اسم لما كُتِب مَجْمُوعاً؛ والكِتابُ مصدر»[2].

والمراد من الكتاب هنا هو القرآن الكريم، وهو وإن استعمل في غيره من الكتب السماويّة النازلة، بل أطلق القرآن على أتباع الكتب السابقة عنوان أهل الكتاب، إلّا أنّه هنا يراد منه القرآن؛ لأنّه هو الكتاب المنزل على الرسول محمّد ﷺ، فـ(اللام) -إذاً- للعهد.

لكن لماذا أسماه كتاباً مع أنّه نزل على قلب النبيّ ﷺ إلقاءً في القلب أو مشافهة قبل أن يكتب لاحقاً بإملاء الرسول ﷺ؟

(1) سورة الأنعام، الآية 37.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص698.

لعلّه من باب المجاز بلحاظ ما سيؤول إليه، كما يطلق على العقد كتاب، وإن لم يُدوَّن.

أو هو إشارة إليه في واقعه الخارجيّ القائم حين نزول هذه الآية حيث كان قد تمّ تدوين ما نزل وكتابه.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

اللغة: الباء للمصاحبة، بمعنى النازل فيه، متضمّناً له. والحقّ واضح. وقيل يحتمل أمرَيْن:

«**أحدهما:** بالصدق في أخباره وجميع دلالاته التي تقوم مقام الخبر في تعلّقها بمدلولها على ما هو به، ففي جميع ذلك معنى التصديق.

والثاني: بالحقّ؛ أي بما توجبه الحكمة من الإنزال كما أتى بما يوجبه الحكم من الإرسال. وهو حقّ من الوجهَيْن»[1].

وقد ورد استعمال الحقّ مجروراً بـ(الباء) في القرآن الكريم 75 مرّة، منها:

1. ﴿جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾[2].
2. ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾[3].
3. ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾[4].

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص390.
(2) سورة البقرة، الآية 71.
(3) السورة نفسها، الآية 119.
(4) السورة نفسها، الآية 176.

4. ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[1].
5. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ﴾[2].
6. ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[3].
7. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ﴾[4].
8. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[5].
9. ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[6].
10. ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾[7].
11. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[8].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

مصدّقاً

اللغة: نصب على الحال، ومعناه أنّه مصدّق لما قبله من كتاب أو رسول بقول جميع المفسّرين. وإنّما قيل لما قبله: لما بين يديه؛ لأنّه تقدّم عليه نزولاً، تشبيهاً بالمتقدّم مكاناً وحركة ومسيراً بين يديه، وقيل: ظهوراً كظهور الشاخص بين يديه[9].

(1) سورة البقرة، الآية 213.
(2) السورة نفسها، الآية 252.
(3) سورة آل عمران، الآية 3.
(4) السورة نفسها، الآية 108.
(5) سورة النساء، الآية 105.
(6) السورة نفسها، الآية 170.
(7) سورة المائدة، الآية 27.
(8) السورة نفسها، الآية 48.
(9) راجع: الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص390.

وقد وصف الله -سبحانه- كتابه المنزل على نبيّه الأكرم في عدد من المواضع بأنّه مصدّق لما بين يديه، فما هو المقصود بالتصديق؟

الصِّدْق:

نقيض الكذب، وهو مطابقة الخبر لما في نفس الأمر[1]، وصدَقه القولَ لم يكذب عليه، بل أخبره بالحقيقة، وصَدَّقه (بالتشديد): قَبِل قولَه ونسبه إلى الصدق، وهذا مِصْداقُ هذا؛ أَي ما يُصَدِّقُه من جهة انطباقه عليه وتحقيقه له.

فالمصدّق: المقرّ بصدق المخبر أو الخبر، الذي يحكم بصدقه، هذا مع تعدّيّته مباشرة لمفعوله بلا حرف، كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2].

لكنّ الآية الشريفة التي نحن بصدد تفسيرها، وغيرها من الآيات الشبيهة بموردها، عدّت التصديق باللام، وأحياناً عدّته بالباء، فهل يختلف المعنى؟ وعلى قاعدة زيادة المباني تقتضي زيادة المعاني، فما هي الزيادة؟

صدّقه: نسبه إلى الصدق وقبِل بقوله، وقريب منه صدّق به كقوله -تعالى-: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3]؛ أي مقرّاً به أو بصدقه.

(1) راجع: الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج5، ص 200.
(2) سورة الأنعام، الآية 92.
(3) سورة آل عمران، الآية 39.

لكن التعدّية باللام تختلف بعض الشيء، قال -تعالى-:

1. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾[1].
2. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾[2].
3. ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾[3].
4. ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[4].

فلعلّ المقصود هو أنّ الكتاب بوجوده والرسول بشخصه يصدّقان ما جاءت به الرسل المتقدّمة والكتب السابقة التي أخبرت عن الرسول الخاتم ﷺ، فالرسول يصبح المصداق الخارجيّ الذي بوجوده جسّد الحقيقة التي أخبر عنها الماضي من الرسل والسابق من الكتب التي جاؤوا بها أو نزلت عليهم.

ولعلّ ما ورد في قصّة إبراهيم في سورة الصافّات من قوله -تعالى-: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[5]، معناه: قد فعلت ما أُمِرت به في الرؤيا، فصار فِعلكَ مصداقاً لها، محقّقاً للحقيقة التي تنطبق عليها الرؤيا، والله العالم.

كما أنّ الكتاب حاكم بصدق ما تقدّم من كتب نازلة على أنبياء الله السابقين، يشهد بذلك، ويأمر بالإيمان به.

(1) سورة البقرة، الآية 89.
(2) السورة نفسها، الآية 101.
(3) السورة نفسها، الآية 41.
(4) سورة آل عمران، الآية 3.
(5) سورة الصافات، الآية 105.

قال -تعالى-: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

في تفسير بحر العلوم: «﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، يعني أنزل عليك جبريل بالقرآن بِالْحَقِّ؛ أي بالعدل، ويقال لبيان الحقّ: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، يعني موافقاً للكتب المتقدّمة في التوحيد، وفي بعض الشرائع»[2].

وقد ورد مثل هذا من حيث اختلاف التعدية بالباء تارةً وباللام أخرى في قوله -تعالى-: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3].

قال الشيخ الطوسيّ قدس سره في "التبيان في تفسير القرآن": «وقوله: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قال ابن عبّاس: معناه ويصدق المؤمنين. وقيل دخلت اللام كما دخلت في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[4]، وتقديره: ردفكم، واللام مقحمة، ومثله: ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾[5]، ومعناه: يرهبون ربّهم، واللام مقحمة، وقال قوم: دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق وإيمان الأمان»[6].

---

(1) سورة البقرة، الآية 136.
(2) السمرقنديّ، نصر بن محمّد، بحر العلوم (تفسير السمرقنديّ)، تحقيق: د. محمود مطرجيّ، دار الفكر، لا. ت، لا. ط، ج1، ص217.
(3) سورة التوبة، الآية 61.
(4) سورة النمل، الآية 72.
(5) سورة الأعراف، الآية 154.
(6) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج5، ص247 - 248.

قال الجصّاص في أحكام القرآن: «وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عبّاس: يصدق المؤمنين، ودخول اللام هاهنا كدخولها في قوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾[1]، ومعناه: ردفكم، وقيل: إنّما أُدخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق وإيمان الأمان، فإذا قيل: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يعقل به، غير التصديق، وهو كقوله -تعالى-: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾[2]؛ أي لن نصدقكم، وكقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[3]»[4].

وفي الأصفى في تفسير القرآن: «يُؤْمِنُ بِاللهِ: يصدّق به، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ: يصدّقهم واللّام للفرق بين الإيمانَيْن»[5].

وما بين يديه: هي الكتب المتقدّمة السابقة، فهل تدلّ الآية على صحّة الكتب السماويّة المتداولة في عصر نزول القرآن، وعلى صدقيّتها؟

ذهب بعضهم إلى ذلك في الجملة، على الرغم من أنّه شابها الكثير من التحريف، قال -تعالى-: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6].

(1) سورة النمل، الآية 72.
(2) سورة التوبة، الآية 94.
(3) سورة يوسف، الآية 17.
(4) الجصّاص، أحمد بن عليّ، أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمّد عليّ شاهين، دار الكتب العلميّة، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1، ج3، ص182.
(5) الفيض الكاشانيّ، المولى محمّد محسن، التفسير الأصفى، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، 1418هـ.ق - 1376 ش، ط1، ج1، ص474.
(6) سورة المائدة، الآية 13.

ولكنّ تصديق القرآن لما بين يديه بالتوجيه الذي تمّ بيانه لا يستلزم الحكم بصدق ما في الكتب السابقة المتداولة، والتي حكم بتحريفها، وإن لم يكن ثمّة مانع من بقاء بقيّة منها سليمة، ولكنّ المقام ليس مقام الإقرار بصدقها في الجملة أو بالجملة، وإنّما هي في مقام تبيان إخبار الكتب السابقة عن بعثة الرسول، فهو مطابق لما أخبرت به ممّا هو ثابت أنّهم يعرفونه، قال -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

كما أنّ الحكم بصدق ما نزل على الأنبياء السابقين لا يستلزم التصديق بما هو موجود بين أيدي أتباع الديانات السابقة ممّا ينصّ القرآن على تعرّضه للتحريف والتغيير بأنحاء مختلفة، قال -تعالى-:

﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[3].

وقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾[4].

(1) سورة البقرة، الآية 146.
(2) سورة الأنعام، الآية 20.
(3) السورة نفسها، الآية 91.
(4) سورة البقرة، الآية 79.

وبناءً عليه، فإنّ القرآن يشهد بإنزال الكتب السابقة على الأنبياء السابقين، ويدعو إلى الإيمان بها كما الإيمان بالرسل السابقين، ولا يدعو بذلك إلى قَبول الكتب المتداولة المغيّرة والمحرّفة.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾:

التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ

ورد ذكر التوراة في القرآن الكريم في 18 موضعاً، وذكر الإنجيل في 12 موضعاً، عشرة مواضع منها مشتركة، عطف فيها الإنجيل على التوراة أو ذكره بعدها، وفي ثمانية مواضع جاء ذكر التوراة منفردة، وفي موضعين ذكر الإنجيل منفرداً.

قال السيّد الطباطبائيّ قدس سره: «التوراة كلمة عبرانيّة بمعنى الشريعة، والإنجيل لفظ يونانيّ، وقيل فارسيّ الأصل معناه البشارة»[1].

والتوراة هي الكتاب النازل على موسى عليه السلام، أمّا الإنجيل فهو الكتاب النازل على عيسى عليه السلام. وما هو متداول اليوم من التوراة ضمن أسفار العهد القديم محرَّف بلا شكّ، مكتوب بعد موسى عليه السلام، ففيه ذكر وفاته من جهة، وفيه وصف لأنبياء الله المكرمين (إبراهيم ولوط ويعقوب وغيرهم) بما لا يمكن اتّصاف نبيّ به، وفيه نسبة أفعال شنيعة إليهم يتنزّه عنها الأنبياء.

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص9.

أمّا الأناجيل المتداولة فكلّها مكتوبة بعد عيسى من قِبَل تلامذته أو من تتلمذ عليهم، كما ينصّ على ذلك كلّ من كتب في هذا المجال بمن فيهم المعنيّون بطباعة الكتاب المقدّس وتحقيقه.

﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾

ما يُفرّق بين الحقّ والباطل، ويوصف به القرآن الكريم. وهو وإن أطلق على غيره كما في قوله -تعالى-: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾[1]، إلاّ أن المقصود هنا هو القرآن؛ بدليل السياق الذي تحدّث عن نزول التوراة والإنجيل ثمّ الفرقان. وقد سمّاه الله -تعالى- بذلك في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2].

لكن هل يختلف الفرقان عن القرآن في المعنى؟

في تفسير القمّيّ في الصحيح عن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «**الفرقان كلّ أمر محكم، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدقّه من كان قبله من الأنبياء**»[3].

وفي تفسير العياشيّ -أيضاً- عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن والفرقان، قال: «**القرآن: جملة الكتاب، وأخبار ما يكون، والفرقان: المحكم الذي يعمل به، وكلّ محكم فهو فرقان**»[4].

(1) سورة الأنفال، الآية 41.
(2) سورة الفرقان، الآية 1.
(3) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص 96.
(4) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص9.

وقريب منهما رواه الشيخ الكلينيّ، عن عليِ بن إبْراهِيم، عن أَبيه، عن ابن سنان أو عن غيره عمَّن ذكرهُ قال: سألت أبا عبد اللهِ عليه السلام عن القرآن والفرقان أَهما شيئانِ أو شيء واحد؟ فقال عليه السلام: «**الْقرآنُ جُمْلَةُ الكتابِ، والفرقانُ المحكمُ الواجب العملِ بهِ**»[1].

وعن عبد الله بن سنان، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله -تعالى-: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾[2]، قال: «**هو كلّ أمر محكم، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدق فيه من كان قبله من الأنبياء**»[3].

أبو عليّ الطبرسيّ، قال: روي عن عبد الله بن سنان، عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**الفرقان هو كلّ آية محكمة في الكتاب، وهو الذي يصدق فيه من كان قبله من الأنبياء**»[4].

وقد جاء الفرقان معطوفاً على الكتاب في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾[5].

وعن الإمام العسكريّ عليه السلام: «**قال الله -عزّ وجلّ-: واذكروا إذ أخذنا مِيثاقَكُمْ وعهودكم أن تعملوا بما في التوراة، وما في**

(1) الكافي، مصدر سابق، ج2، ص630.
(2) سورة آل عمران، الآيات 1 - 3.
(3) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص96.
(4) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص236.
(5) سورة البقرة، الآية 53.

الفرقان الذي أعطيته موسى مع الكتاب المخصوص بذكر محمّد وعليّ والأئمّة الطيّبين من آلهما، بأنّهم سادة الخلق، والقوّامون بالحقّ»[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

تفريع على نزول الفرقان، حيث إنّ الحقّ له من الظهور ما يقطع عذر من امتنع عن الإيمان والإقرار، فاستحقّ بذلك العقاب؛ لدخوله في عداد الكافرين المعاندين.

وفي اللغة: «والكَفر في اللغة التغطية»[2]، «والرجل يكفر درعه بثوب كفراً، إذا لبسه فوقه، فذلك الثوب كافر الدرع، والكافر: الليل والبحر، ومغيب الشمس.

وكلّ شيء غطى شيئاً فقد كفره.

والكافر من الأرض: ما بَعُدَ عن الناس، لا يكاد ينزله أحد، ولا يمرّ به أحد، ومن حلّها يقال: هم أهل الكفور.

قال الضرير: هي القرى»[3].

وسُمّي المزارع كافراً؛ لأنّه يضع البذر في التراب ويكفره؛ أي يغطيه. قال -تعالى-: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[4]؛ أي الزرّاع.

(1) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص266.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص145 - 146.
(3) الفراهيديّ، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهديّ المخزوميّ؛ الدكتور إبراهيم السامرائيّ، مؤسّسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ.ق، ط2، ج5، ص357.
(4) سورة الحديد، الآية 20.

«والكفر: نقيض الإيمان. ويقال لأهل دار الحرب: قد كفروا؛ أي: عصَوا وامتنعوا»[1].

والكفر: نقيض الشكر. كفَر النعمة؛ أي لم يشكرها[2].

ورد عن علِي بن إبراهِيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن يزيد عن أبِي عمرو الزُّبيريّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ وُجُوهِ الْكُفْرِ فِي كِتَابِ اللهِ -عزّ وجلّ-، قَال: «**الْكُفْرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ؛ فَمِنْهَا كُفْرُ الْجحُود، وَالجُحُود عَلَى وَجهَيْنِ، وَالكفرُ بِتَرْك ما أَمر اللَّهُ، وكفرُ الْبراءةِ، وَكُفْرُ النِّعَمِ.**

فَأَمَّا كُفْرُ الْجُحُودِ، فَهُوَ الْجُحُودُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ لَا رَبَّ، وَلَا جَنَّةَ، وَلَا نَار، وَهُوَ قَوْلُ صِنْفَيْنِ مِنَ الزَّنَادِقَةِ يُقَالُ لَهُمُ الدَّهْرِيَّةُ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ، وَهُوَ دِينٌ وَضَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ بِالِاسْتِحْسَانِ عَلَى غَيْرِ تَثَبُّتٍ مِنْهُمْ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُونَ. قَالَ اللهُ -عزّ وجلّ-: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُونَ، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي بِتَوْحِيدِ اللَّهِ -تعالى-، فَهَذَا أَحَدُ وُجُوهِ الْكُفْرِ.

وَأَمَّا الْوَجْهُ الْآخَرُ مِنَ الْجُحُودِ عَلَى مَعْرِفَةٍ، وَهُوَ أَنْ يَجْحَدَ الْجَاحِدُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ قَدِ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ -عزّ وجلّ-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، **وَقَالَ اللَّهُ -عزّ وجلّ-:** ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص155.
(2) المصدر نفسه.

﴿جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فَهَذَا تَفْسِيرُ وَجْهِي الْجُحُودِ.

وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ مِنَ الْكُفْرِ كُفْرُ النِّعَمِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ -تعالى- يَحْكِي قَوْلَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ﴾، وَقَالَ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾، وَقَالَ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾.

وَالْوَجْهُ الرَّابِعُ مِنَ الْكُفْرِ تَرْكُ مَا أَمَرَ اللهُ -عزّ وجلّ- بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ﴾، فَكَفَّرَهُمْ بِتَرْكِ مَا أَمَرَ اللهُ -عزّ وجلّ- بِهِ، وَنَسَبَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُمْ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ عِنْدَهُ، فَقَالَ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

وَالْوَجْهُ الْخَامِسُ مِنَ الْكُفْرِ كُفْرُ الْبَرَاءَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ -عزّ وجلّ- يَحْكِي قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾، يَعْنِي تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ. وَقَالَ يَذْكُرُ إِبْلِيسَ وَتَبْرِئَتَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ مِنَ الْإِنْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنِّي

كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۖ﴾، **وَقَالَ:** ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنَا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾، **يَعْنِي يَتَبَرَّأُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ**»[1].

﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾:

الإطلاق وعدم التنصيص على كون العذاب في الدنيا أو في الآخرة ويوم القيامة، ربّما تضمّن الوعيد بالعذاب الدنيويّ فضلاً عن الأخرويّ.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ﴾:

لا يُقهر، ولا يُغلب، ولا يُنال بسوء.

﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

الانتقام:

المجازاة، وليس في أصل المعنى التشفّي، وإن كان يرافق الانتقام عند البشر، والله منزّه عن ذلك.

اللغة: قال الخليل في العين: «نقِم ينقِم نقماً ونقيمة؛ أي [أنكر ولم يرضَ]. انتقمت منه: كافأته عقوبة بما صنع»[2].

وفي لسان العرب: «النَّقِمةُ والنَّقْمةُ: المكافأة بالعقوبة، والجمع نَقِمٌ ونِقَمٌ، فنَقِمٌ لنَقِمة، ونِقَمٌ لنِقْمةٍ، وأمّا ابن جنّيّ فقال: نَقِمة ونِقَمٌ. ابن الأعرابيّ: النِّقْمةُ العقوبة، والنِّقْمةُ الإنكار. وقوله -تعالى-: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾؛ أي هل تُنْكِرون»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص389 - 391.
(2) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج5، ص181.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص590.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

علم الله

الله -تعالى- عالِم لا يخفى عليه شيء في الوجود. وعلم الله -تعالى- عين ذاته، فهو أزليّ سابق على وجود المعلوم، وليس طارئاً ولا مكتسباً. وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة في مواضع عدّة:

1. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾[1].
2. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[2].
3. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[3].
4. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[4].
5. ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[5].
6. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[6].
7. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[7].
8. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[8].

---

(1) سورة فصّلت، الآية 54.
(2) سورة البقرة، الآية 29؛ سورة النساء، الآية 176؛ سورة الأنعام، الآية 101؛ سورة الحديد، الآية 3.
(3) سورة البقرة، الآية 231.
(4) سورة البقرة، الآية 282؛ سورة النساء، الآية 176؛ سورة النور، الآيتان 35 - 64؛ سورة الحجرات، الآية 16؛ سورة التغابن، الآية 11.
(5) سورةالمائدة، الآية 97.
(6) سورة الأنعام، الآية 101.
(7) سورة النساء، الآيتان 32 - 176؛ سورة الأنفال، الآية 75؛ سورة التوبة، الآية 115؛ سورة العنكبوت، الآية 62؛ سورة الأحزاب، الآية 54؛ سورة المجادلة، الآية 7.
(8) سورة البقرة، الآية 29؛ سورة يس، الآية 79.

9. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[1].
10. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[2].
11. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[3].
12. ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[4].
13. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[5].
14. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾[6].
15. ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[7].
16. ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[8].
17. ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[9].
18. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[10].

---

(1) سورة الشورى، الآية 12.
(2) سورة الحجرات، الآية 16.
(3) سورة الأنعام، الآية 73.
(4) سورة التوبة، الآية 94.
(5) السورة نفسها، الآية 105.
(6) سورة الرعد، الآية 9.
(7) سورة المؤمنون، الآية 92.
(8) سورة السجدة، الآية 6.
(9) سورة سبأ، الآية 3.
(10) سورة فاطر، الآية 38.

19. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1].

20. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

21. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[3].

22. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[4].

23. ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[5].

24. ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[6].

الضمير يعود إلى الله -جلّ اسمه-، حيث ذكر الاسم الظاهر في الآية السابقة، وذكر الضمير في هذه الآية منعاً للتكرار، ولأنّه أبلغ بعد أن بيَّن شموليّة علمه إلى كلّ شيء سواء كان في الأرض بتخومها وبحارها وعلوّ سطحها أو في السماء وما فيها...، ولما كانت القيّوميّة الكاملة تستلزم الإحاطة العلميّة من جهة، والقدرة التامّة من جهة أخرى، فقد قُدّم ذكر الإحاطة العلميّة وعدم خفاء شيء، وذكر بعده ما يرتبط بالقدرة ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وهنا في هذه الآية جاء بمثال على علمه وقدرته معاً، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾.

(1) سورة الزّمر، الآية 46.
(2) سورة الحشر، الآية 22.
(3) سورة الجمعة، الآية 8.
(4) سورة التغابن، الآية 18.
(5) سورة الجن، الآية 26.
(6) سورة آل عمران، الآية 6.

التصوير

اللغة: هو إعطاء الصورة التي تشمل ما يرتبط بالخصائص الجسديّة الظاهريّة والباطنيّة كلّها، وهي الهيئة التي يصير عليها بعد تكوين أجزائه وتأليف أعضائه وتمام خلقه. قالوا: أصلها من «صاره يصوّره إذا أماله؛ لأنّها مائلة إلى هيئة بالشبه لها»[1].

في أسماء الله -تعالى-: «المُصَوِّرُ: وهو الذي صَوَّر جميعَ الموجودات ورتّبها، فأَعطى كلّ شيء منها صورة خاصّة، وهيئة مفردة يتميَّز بها، على اختلافها وكثرتها»[2].

والأرحام معروفة، وهي أوعية تخلّق الجنين لدى الإناث ونموّه حتّى أوان ولادته.

قال في العين: «الرحم: بيت منبت الولد ووعاؤه في البطن. وبينهما رحم؛ أي قرابة قريبة...، وجمعه الأرحام»[3].

وقال ابن الأَثير: «ذَوو الرَّحِمِ هم الأَقارب، ويقع على كلّ من يجمع بينك وبينه نسَب، ويطلق في الفرائض على الأَقارب من جهة النساء»[4].

هل بين الرحم بالمعنى الأوّل والمعنى الثاني من صلة أم هو مجرّد اشتراك لفظيّ؟ وأيّهما الأصل للآخر؟

---

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص237.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص473.
(3) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج3، ص224.
(4) ابن الأثير، المبارك بن محمّد الجزريّ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاويّ؛ محمود محمّد الطناحيّ، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1364ش، ط4، ج2، ص210.

لم يُشبع اللُغويّون هذا بحثاً، ولم أجد سوى إشارة من ابن منظور، حيث قال: «والرَّحِمُ: أَسبابُ القرابة، وأَصلُها الرَّحِمُ التي هي مَنْبِتُ الولد»[1].

قيل: «ذكر سبحانه هذا ليبطل به قول النصارى إنّ عيسى إله؛ لأنّه من غير أب. ووجه البطلان أنّ الإله لا يُخلق ويوجد في الأرحام، وإنّما الإله هو الخالق المصوّر للمخلوق في رحم أمّه، فإن شاء خلقه وصوّره بواسطة الأب، وإن شاء خلقه بغير هذه الواسطة حسبما تستدعيه حكمته القدسيّة»[2]. انتهى.

ومهما يكن، فإنّ مراحل تخلّق الجنين في رحم أمّه، وخروجه في أحسن تقويم وأبهى صورة، واحدة من تجلّيات العلم الإلهيّ والقدرة والحكمة والجمال. وثمّة تجلّيات عديدة ولكن هذا ذكر ليتناسب مع سياقات عدّة، منها ما تقدّم في عيسى عليه السلام، ومنها أنّهم هم الذين يغفلون عن ربّهم وعن قدرته وأخذه، مخلوقون له، بين يديه، لو شاء أن يجعلهم على غير الصورة التي هم عليها لفعل وهم في أرحام أمهاتهم.

﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

اللغة: «كيف: في موضع نصب على المصدر، تقديره أيّ نوع يشاء. وجملة يشاء في موضع الحال من يصوّر؛ أي يصوّركم في

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص232.
(2) مغنيّة، الشيخ محمّد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، 1981م، ط3، ج2، ص8.

الأرحام؛ أي يخلق صوركم في الأرحام شائياً مريداً أيّ نوع أراده»[1].

لا إله إلّا هو: عودة إلى ما بدأت به السورة، وقد تقدّم معناه.

العزيز

القويّ الغالب الذي لا يُقهر ولا يُنال.

الحكيم

الحِكْمَةُ: العدل. ورجل حَكِيمٌ: عدل حكيم.

ابن الأَثير: «في أَسماء الله -تعالى- الحَكَمُ والحَكِيمُ وهما بمعنى الحاكِم، وهو القاضي، فَهو فعِيلٌ بمعنى فاعَلٍ، أو هو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها، فهو فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ. وقيل: الحَكِيمُ ذو الحِكمة، والحَكْمَةُ عبارة عن معرفة أفضل الأَشياء بأفضل العلوم»[2].

الآية (7)

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

اللغة: لسان العرب: «استحكم الأمر: وثق. وأَحْكَمَ الأَمر: أتقنه، وأَحْكَمَتْه التجاربُ على المَثَل، وهو من ذلك...، الأَزهريّ:

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص237.
(2) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مصدر سابق، ج1، ص419.

وقوله -تعالى-: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]؛ فإنّ التفسير جاء: أُحْكِمَتْ آياته بالأمر والنهي والحلالِ والحرامِ؛ ثمّ فُصِّلَتْ بالوعد والوعيد، قال: والمعنى، والله أعلم، أنّ آياته أُحْكِمَتْ وفُصِّلَتْ بجميع ما يحتاج إليه من الدلالة على توحيد الله وتثبيت نبوّة الأَنبياء وشرائع الإِسلام، والدليل على ذلك قول الله -عزّ وجلّ-: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾»[2].

وفي حديث ابن عبّاس: «قرأْت المُحْكَمَ على عَهْدِ رسول الله ﷺ»[3]؛ «يريد المُفَصَّلَ من القرآن؛ لأنّه لم يُنْسَخْ منه شيء»[4].

العين: «أحكم فلان عنّي كذا؛ أي: منعه. واستحكم الأمر: وثق. وحَكَمة اللجام: ما أحاط بحنكيه سمّي به؛ لأنّها تمنعه من الجري.

وكلّ شيء منعته من الفساد فقد حكمته وأحكمته، قال:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إنّي أخاف عليكم أن أغضبا

وفرس محكومة: في رأسها حَكَمة»[5].

في مجمع البحرين: «قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. المحكمات جمع المحكم، وهو في اللغة: المضبوط المتقن، وفي الاصطلاح على ما ذكره بعض المحقّقين-: يُطلق على ما اتّضح معناه وظهر لكلّ عارف باللغة، وعلى ما كان محفوظاً من النسخ أو

(1) سورة هود، الآية 1.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص143.
(3) ابن حنبل، مسند أحمد، مصدر سابق، ج1، ص253.
(4) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مصدر سابق، ج1، ص419.
(5) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج3، ص67.

التخصيص، أو منهما معاً، وعلى ما كان نظمه مستقيماً خالياً من الخلل، وعلى ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً. قال: ويقابله بكلّ من هذه المتشابه.

قال: إذا تقرّر هذا، فاعلم أنّ المحكم خلاف المتشابه وبالعكس؛ إذ لا واسطة بينهما. وقد نصّ اللغويّون على أنّ المتشابهات هي المتماثلات. يقال: هذا شبه هذا؛ أي شبهه ومثله، يقال أيضاً: بينهما شَبَه بالتحريك؛ أي مماثلة. وفسّروا الشبه بكلّ لون يخالف معظم لون صاحبه؛ ومن هذا يتبيَّن أنّ الظواهر ليست من المتشابه؛ إذ ليس فيها شيء من هذه المعاني، وإن احتملت -ضعفاً- خلاف المعنى الظاهريّ، على أنّ ذلك الاحتمال منها من حيث الإرادة لا من حيث الدلالة. وينقسم المحكم إلى النصّ؛ وهو الراجح المانع من النقيض؛ كقوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وإلى الظاهر، وهو الراجح غير المانع من النقيض؛ كقوله -تعالى-: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]»[3].

ولعلّ هذا من جهة إمكانيّة التخصيص والتقييد على مستوى الأمر وعلى مستوى الموضوع والزمان وغيرها من الشروط والقيود، ويبقى ظاهر اللفظ والتركيب هنا واضح الدلالة، فهو محكم من هذه الناحية، وإن احتمل أن يكون المراد الجدّيّ على خلاف الظاهر؛ لقرينة منفصلة أو متّصلة، كما هو مبيَّن في محلّه عند الأصوليين.

(1) سورة البقرة، الآية 29.
(2) سورة التوبة، الآية 5.
(3) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج6، ص43 - 44.

ثمّ قال في مجمع البحرين: «وفي تفسير الشيخ أبي عليّ ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؛ أي أحكمت عبارتها، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي أصل الكتاب، تُحمل المتشابهات عليها وتَرِدُ إليها، ولو كان القرآن كلّه محكماً لتعلّق الناس به لسهولة أخذه، وأعرضوا عمّا يحتاجون فيه إلى النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطّلوا الطريق الذي يتوصّل به إلى معرفة الله -تعالى- وتوحيده، وكان لا يتبيّن فضل العلماء والذين يتّبعون القرائن في استخراج معاني المتشابه. انتهى»[1].

فالإحكام في اللغة معناه الإتقان، ويوصف به الكلام إذا كانت دلالته على المراد واضحة بحيث لا تحتمل وجوهاً أخرى من المعاني؛ ومن هنا كان المحكم هو الذي لا تعتريه شبهة من حيث الدلالة، ولا يتعدّد فيه احتمال المعنى.

وأمّا التشابه فهو مأخوذ من تشابه الوجوه؛ أي تماثل بعضها مع بعض، بحيث يحتمل وجوهاً متعدّدة من المعاني. ومن ثَمّ كان المتشابه ما فيه شيء من الخفاء في الدلالة، فكان ظاهره لا ينبىء بنفسه عن المراد، ما لم يرجع إلى معونة القرائن والدلالات الخارجيّة الموجودة في آيات أخرى، أو في الروايات الواردة عن أهل بيت النبوّة عليهم السلام الكاشفة عن الدلالة الصحيحة أو المعنى المراد.

إذاً، فالمتشابه بحاجة إلى التأويل، والإرشاد إلى الوجه المتعيّن من الوجوه المحتملة. وإذا أُرجعت المتشابهات إلى المحكمات ارتفعت جميع جوانب الإبهام والتشابه أو كثير منها.

(1) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج6، ص44.

والآية الشريفة تتحدّث عن مرضى القلوب، وطلّاب التحريف المعنويّ، الذين يريدون استخدام القرآن الكريم وسيلة للوصول إلى مآربهم الخبيثة، فيلجأون إلى المتشابهات. وليس التمسّك بالمتشابهات دليل زيغ وانحراف دائماً ومطلقاً؛ لأنّ أخذ المتشابهات بالطريقة الصحيحة وعلى أساس إرجاعها إلى المحكمات لتفسّرها، أو الرجوع إلى الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها، جائز لا ريب فيه.

وفي أوّل سورة هود قال -تعالى-: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، وفيه وصف لجميع آيات القرآن بأنّها محكمات، لكن في قبال التفصيل؛ فلعلّ المراد هو الترابط والتماسك بينها، وربّما كان المقصود الأصول التي تمثّل قواعد الدين، فيتفرّع عنها التفاصيل، وهذا يلتقي مع الإحكام في قبال التشابه، بينما في سورة الزمر قال -تعالى-: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[1]، وصف الكتاب بأنّه متشابه، فهل يعني أنّ آياته كلّها متشابهات؟ قد يكون التشابه هنا بمعنى التماثل من حيث صحّتها وحقيقتها.

(1) سورة الزمر، الآية 23.

حكمة وجود المتشابه في القرآن

من المعلوم أنّ القرآن كتاب هداية، وربّما قيل إنّ المتشابه قد يوقع الإنسان في الالتباس والشبهات؛ لعدم وضوح معناه، وتعدّد الاحتمالات فيه، فما الحكمة في وجود المتشابه في القرآن؟

والجواب: إنّ القرآن الكريم تصدّى لبيان أمور كثيرة غير محسوسة ولا يمكن تصويرها ولا التعبير عنها بالطريقة المتعارفة إلّا إذا استعين بالمجازات والاستعارات والكنايات، وتقريب تلك المعاني بتشبيهها بالمحسوسات؛ وذلك لأمرَيْن:

1 - ضيق العبارات، وعجز الألفاظ.

2 - عجز الأذهان البشريّة الساذجة عن إدراك تلك المعاني؛ إمّا لدقّتها أو لخفائها عن غير أهلها. ولا يعني ذلك أبداً خروج القرآن الكريم عن كونه كتاب هداية وبيان ونور، ولا ينافي ذلك أبداً وجوب التدبّر في آياته، والغوص في أعماقه، واستخراج مكنوناته، فإنّ الطريق إلى معرفة المعاني المقصودة في الآيات المتشابهة مفتوح، وذلك عن طريقَيْن:

الأوّل: ردّ المتشابه إلى المحكم، وتفسيره على ضوء ما هو مبيّن في الآيات المحكمات، فهي التي تحدّد المقصود، وتبيّن المراد.

ففي الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام: «**من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم**»[1].

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح: الشيخ حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1404هـ.ق - 1984م، لا. ط، ج1، ص261.

الثاني: الرجوع إلى الراسخين في العلم: وهم الرسول ﷺ وأهل بيته المعصومون عليهم السلام، ورثة علمه، وباب مدينته، وخُزّان وحيه.

فقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّما يعرف القرآنَ من خوطب به**»[1].

فالمتشابه، ليس متشابهاً بقول مطلق؛ لأنّ تشابهه مرتفع عند أهله، وقد ورد في الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**المحكم ما يعمل به، والمتشابه ما اشتبه على جاهله**»[2].

فقوله عليه السلام: «**على جاهله**» يدلّ على أنّه غير متشابه عند العالم به، وهم الراسخون في العلم.

ومن هذه النصوص نستفيد أنّ الآيات المتشابهة هي الآيات التي لا تستقلّ في مدلولها، بل لا بدّ من ردّها إلى الآيات المحكمة.

يقول العلّامة الطباطبائيّ قدس سره: «وعليه ليس في القرآن آية لا نتمكّن من معرفة معناها، بل الآية إمّا محكمة بلا واسطة كالمحكمات نفسها، أو محكمة مع الواسطة كالمتشابهات»[3].

والجدير بالإشارة أنّ المعنى المذكور في كلامه قدس سره هو معرفة بعض مراتب المعنى بما يتناسب مع مستوى إدراك القارىء المتدبّر في القرآن، وإلّا فمراتب المعنى عديدة وكثيرة تختلف عمقاً، ولا

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص312.
(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص162.
(3) الطباطبائيّ، العلاّمة السيّد محمّد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب: السيّد أحمد الحسينيّ، لا. ن، لا. م، لا. ت، لا. ط، ص36 - 37.

يمكن إدراك مداها إلّا لمن خصّ بالمنزلة العليا من الكمال البشريّ، وهم الراسخون في العلم. وهذا لا علاقة له بالإحكام والتشابه، وإنّما هو يجري في كلّ آية من آيات الكتاب؛ محكمةً كانت أو متشابهة.

وقد ذهب السيّد العلّامة الطباطبائيّ قدس سره إلى أنّ سبب وقوع التشابه في القرآن يعود إلى كون القرآن الكريم يخضع في إلقاء معارفه العالية لألفاظ وأساليب دارجة لم تكن موضوعة لسوى معانٍ محسوسة أو قريبة منها، ومن ثمّ لم تكن تفي بتمام المقصود، إلّا بارتكاب الكنايات والمجازات فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب إلّا على أولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوى رفيع من العلم[1].

وهذا قريب مما قدّمناه.

وفي هذا المجال يقول الشيخ محمّد عبده: «إنّ الأنبياء بعثوا إلى جميع أصناف الناس من دانٍ وشريف وعالم وجاهل وذكيّ وبليد، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كلّ أحد، ففيها من المعاني العالية والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصّة ولو بطريق الكناية والتعريض ويؤمر العامّة بتفويض الأمر فيه إلى الله والوقوف عند حدّ المحكم فيكون لكلٍّ نصيبه على قدر استعداده»[2].

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص57 - 61.
(2) رشيد رضا، السيد محمّد، تفسير المنار، دار المنار، مصر، 1367هـ، ط3، ج3، ص170.

أهل الزيغ والمتشابهات

يعمد الذين في قلوبهم زيغ إلى استغلال المتشابه؛ لفتنة الناس عن دينهم عن طريق التأويل.

فالناس ثلاثة أصناف:

1 - الراسخون في العلم: ومن هو على خطاهم، وهؤلاء لا تشابه عندهم -كما قدّمنا-؛ لأنّهم يدركون التأويل، ويأخذون المتشابه بالأسلوب الصحيح، فيرتفع التشابه.

2 - عوامّ الناس: الذين قد لا يلتفتون إلى الشكوك العارضة والاحتمالات المتعدّدة، وهم يستفيدون من المتشابه حسبما يردهم من الراسخين في العلم، أو لا يقعون فريسة المشكلات المترتّبة على الأخذ بالمتشابه من أصل، لكنّ أهل الزيغ يوقعونهم في الفتنة من خلال التأويل.

3 - أهل الجدل والمذاهب الكلاميّة: الذين يخوضون في الاحتمالات على غير هدىً، ويوقعون الناس في التشكيكات والانحرافات، فيسخّرون القرآن لمآربهم، فيجدون في المتشابه فرصة لذلك. وهذه الطبقة الأخيرة على قسمَيْن:

الأولى: أهل الظاهر الذين يقفون عند ظاهر اللفظ دون الاهتمام بما يجرّه ذلك من مخالفة صريحة للمحكمات، والالتزام بما لا ينسجم مع العقائد الأساسيّة الثابتة بالعقل والنقل.

الثانية: أهل الزيغ ومرضى القلب الذين تحدّثت عنهم الآية، فهؤلاء يتعمّدون التحريف والتأويل والتصرّف في المعاني بحسب أهوائهم، ويثيرون الشبهات لحرف الناس عن الصواب.

ولقد تسبّب أهل الزيغ في خلق حالة التشكيك والخفاء في الآيات المتشابهة نتيجة الخوض في الشبهات والسجالات الكلاميّة، وأبعدوا بذلك المعاني القرآنيّة عن متناول الأيدي بالنسبة إلى الكثيرين؛ ولأجل ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام يوصي ابن عبّاس عندما بعثه إلى الخوارج للاحتجاج عليهم: «**لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وجُوه، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً**»[1].

فهل تدلّ الآية على حرمة العمل بالمتشابه، خاصّة بعد ضمّ الروايات المتقدّمة التي عرفت المحكم المتشابه؟

الجواب: إنّ هذه الآية الشريفة لم تنهَ عن الأخذ بالمتشابه من القرآن، كما توهّم بعضهم، وإنّما ذمّت الذين يلجأون إلى المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل بما يتناسب مع أغراضهم الدنيئة. أمّا العمل بالمتشابه بعد ردّه إلى المحكم، أو رفع تشابهه عن طريق الرجوع إلى الراسخين في العلم، فهو ممّا لا ريب فيه، ولم ينهَ عنه القرآن، ولا منع منه.

فالقرآن «**يَنْطِقُ بَعْضهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضهُ عَلَى بَعْضٍ...**»، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام[2].

(1) الشريف الرضيّ، السيّد محمّد الرضيّ بن الحسن، نهج البلاغة(خطب الإمام عليّ عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، لا. ن، لبنان - بيروت، 1387هـ.ق - 1967م، ط1، الوصية 77، ص465.

(2) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص192.

التأويل في القرآن

التأويل

مأخوذ من مادّة (آلَ) إذا رجع، فكأنّ التأويل إرجاع اللفظ إلى معناه المراد واقعاً. قال الخليل الفراهيديّ: «التأوّل والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصحّ إلّا ببيان غير لفظه»[1]. وهذا هو المقصود في الآية التي تعرّضت لتأويل المتشابه.

وقد وردت مادّة التأويل في القرآن 17 مرّة:

- إثنان منها في تأويل المتشابه، كما في سورة آل عمران، الآية 7[2].

- وأربعة منها في تأويل الأحلام، كما في سورة يوسف، الآيات: 36، 44، 45، 100[3].

- وثلاثة منها في تأويل الأحاديث، كما في سورة يوسف، الآيات: 6، 21، 101[4].

- وثلاثة منها في بيان السرّ في الأفعال أو الأشياء، كما في سورة الكهف، الآيات 78، 82[5]، وسورة يونس، الآية 39[6].

---

(1) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج8، ص369.

(2) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ٧﴾.

(3) ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾، ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾، ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ١٠٠﴾.

(4) ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ٦﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ٢١﴾، ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ١٠١﴾.

(5) ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾.

(6) ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ ٣٩﴾.

- وثلاثة بمعنى نفس العين والحقيقة الخارجية، كما في سورة الأعراف، الآية 53[1]، ويوسف، الآية 37[2].

- واثنان بمعنى المآل والمرجع كما في سورة النساء، الآية 59[3]، والإسراء، الآية 35[4].

ويمكن إرجاع الجميع إلى معنى واحد وهو كشف ما كان غامضاً في فعل أو لفظ أو غيب. وهذا ينسجم مع المعنى اللغويّ المأخوذ من الأوّل.

وأمّا في لسان المفسّرين فتوجد ثلاثة استعمالات للتأويل:

الأوّل: تأويل المتشابه، وبيان الوجه فيه والمعنى المراد منه، وهو مختصّ بالآيات المتشابهة، وهو المقصود هنا في الآية.

الثاني: بمعنى التفسير، سواء كان اعتماداً على مداليل الألفاظ أو غيرها من الوسائل والطرق، وهذا أعمّ من الاستعمال السابق.

الثالث: بيان المعاني الباطنة للقرآن الكريم، فإنّ القرآن على ما ورد في الأثر له ظهر وبطن، بل بطون متعدّدة، وربما التقى هذا مع المعنى السابق.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ليس من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن**

(1) ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ٥٣﴾.

(2) ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ٣٧﴾

(3) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

(4) ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾.

وما من حرف إلّا وله تأويل، وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم»[1].

وسئل الإمام الباقر عليه السلام عن هذه الرواية فقال: «**ظهر وبطن هو تأويلها، منه ما قد مضى ومنه ما لم يجيء... ونحن نعلمه**»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن... وله ظهر وبطن ظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق**»[3].

أمّا أنّه لماذا كان القرآن بهذه الكيفيّة؟ فلأنّه تبيان كلّ شيء، ولا يمكن بيان كلّ شيء لكلّ أحد؛ نظراً إلى اختلاف مستويات الناس من حيث القدرة على الإدراك، فمنهم من لا يدرك حتّى الظاهر منه، ومن العلماء من يقتصر على إدراك الظاهر؛ لأنّه يعجز عن خوض غمار الباطن، ومنهم من ينكشف أمامه بعض مراتب الباطن وطبقاته، ومنهم الراسخون في العلم الذين أوغلوا فيه وسبروا أعماقه، وهذا من وجوه الإعجاز في القرآن، بل هو من أعظمها أن يخاطب الناس كلّهم على اختلاف مداركهم بكلام واحد يتضمّن مستويات من العلم والحكمة والمعارف.

فالقرآن كلّه نور وبيان وهدى، وليس الحجاب الساتر لتلك المعارف من قبل القران نفسه، بل من قبلنا نحن محدودي الأوعية الإدراكيّة، وبالله التوفيق.

---

(1) الهلاليّ الكوفيّ، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، تحقيق: محمّد باقر الأنصاريّ الزنجانيّ، نشر دليل ما، إيران - قم، 1422هـ.ق - 1380ش، ط1، ص306.

(2) الصفّار، محمّد بن الحسن، بصائر الدرجات، تصحيح: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، منشورات الأعلميّ، إيران - طهران، 1404هـ.ق - 1362ش، لا. ط، ص223.

(3) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص599.

الراسخون في العلم

تشير الآية إلى اختصاص معرفة التأويل بالله والراسخين في العلم، لكنّ الذين وضعوا علامات الوقف في القرآن الكريم أثبتوا عند لفظ الجلالة في قوله -تعالى-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقفاً لازماً؛ ليجعلوا ما بعد لفظ الجلالة كلاماً مستأنفاً، في محاولة لتخصيص معرفة تأويل المتشابهة بالله -عزّ وجلّ-، وإغلاق باب الوصول إليه على البشر جميعاً، جموداً على المتشابه، وسدّاً لباب التأويل. ولا نشكّ في أنّ المنطلق الأساس لهذا الأمر هو الحسد لأهل البيت عليهم السلام، الذي ورد أنّهم هم الراسخون في العلم، أو الجهل بمقامهم، إذا أحسنّا الظنّ.

والحقيقة، إنّ هذا العمل يفتح المجال أمام التساؤل عن فائدة إدراج الآيات المتشابهة في القرآن الكريم مع كونها لا يعلم تأويلها إلّا الله، وكيف يمكن أن يكون الكتاب -كلّ الكتاب- كتاب هداية وبيان! وكيف يمكن الأمر بتدبّر آياته كلّها!

فالصحيح أنّ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ معطوفة على ﴿ٱللَّهُ﴾ في الآية، فهم يعلمون -بتعليم منه بلا شكّ- تأويل المتشابه، بل البطون العميقة للقرآن الكريم. وليس ثمّة أيّ إشكال إعرابيّ في جعل جملة ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ مستأنفة أو حاليّة، فاعلها يعود إلى الراسخين أنفسهم.

من هم الراسخون في العلم؟

يقول الإمام الإمام الباقر عليه السلام كما في الرواية: «**إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الراسخين في العلم، قد علم جميع ما أنزل الله من التنزيل والتأويل، وما كان الله ليُنزِل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه**»[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله علّم نبيّه التنزيل والتأويل، فعلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام، قال: وعلّمَنا والله**»[2].

وأمّا الروايات التي تصرّح بأنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم الراسخون في العلم فكثيرة ومستفيضة.

نماذج من الآيات المتشابهات

1 - قوله -تعالى-: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[3].
وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾[4].

وأمثال هاتين الآيتين التي عبّرتا بالاستواء.

ولا شكّ في أنّ الاستواء على العرش بمعنى الجلوس عليه غير جائز عليه -تعالى-، فلا بدّ من حملها على معنى السيطرة والاستيلاء

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص213.
(2) المصدر نفسه، ج7، ص442.
(3) سورة طه، الآية 5.
(4) سورة الأعراف، الآية 54؛ سورة يونس، الآية 3؛ سورة الرعد، الآية 2؛ سورة الفرقان، الآية 59.

والقدرة، وهو معنى نستفيده من الآية الشريفة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، وما ورد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «... **ومن قال: فيمَ؟ فقد ضمّنه، ومن قال: علامَ؟ فقد أخلى منه...**»[1] .

ولكنّ الذين عجزوا عن التأويل توهّموا عدم اطّلاع أحد غير الله عليه، فقالوا كما رويَ عن مالك بن أنس أنّه سئل عن قوله -تعالى-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، كيف استوى؟

فأجاب بعد أن أطرق برأسه: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنّي لأخاف أن تكون ضالًّا... ثمّ أمر بالرجل فأُخرج من المسجد»[2].

وهذا النوع من الاستعمال المجازيّ معروف عند العرب، قال الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيف ودم مهراق[3].

2 - قوله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4].

فإنّ النظر هنا ليس نظر الجارحة ولا نظر الرؤية، وذلك لقوله -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾[5].

(1) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، الخطبة1، ص40.
(2) مالك، مالك بن أنس، المدوّنة الكبرى، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط، ج6، ص465.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص414.
(4) سورة القيامة، الآيتان 22 - 23.
(5) سورة الأنعام، الآية 103.

والمؤسف، إنّ الغفلة والجمود دفعا بعضهم إلى مخالفة صريح هذه الآية المحكمة؛ تمسّكاً بالمتشابه في الآية السابقة، فادّعوا إمكان رؤية الله -تعالى-، مع أنّ النظر لا يلزم منه الرؤية، ومع ذلك يمكن حمله على النظر إلى رحمة الله -تعالى- وجميل وعده نظر انتظار.

3 - قوله -تعالى-: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1].

وقوله -تعالى-: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2].

ومن الواضح أنّه لا يمكن إرادة الجارحة؛ لأنّه من التجسيم الباطل، وإنّما المراد يد القدرة، وفي الآية الأولى المقصود نفي العجز عن التصرّف بما يشاء.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

«أولو الألباب: أولو العقول، واحدها لبّ بشدّة الباء الموحّدة، وهو العقل؛ سمّي بذلك لأنّه نفس ما في الإنسان وما عداه كأنّه قشر... ولبّ كلّ شيء: خالصه، ولبّ الجوز واللوز: ما في جوفه، والجمع لبوب، ولُباب كغراب لغة فيه... وألبّ الرجل بالمكان: إذا أقام إليه»[3].

(1) سورة المائدة، الآية 64.
(2) سورة الفتح، الآية 10.
(3) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج2، ص164 - 165.

الآيتان (8-9)

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾:

روى في البرهان عن هشام بن الحكم، قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «**يا هشام، إنّ الله حكى عن قوم صالحين: أنّهم قالوا:** ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ **حين علموا أنّ القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها، إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ينظرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلّا من كان قوله لفعله مصدّقاً، وسرّه لعلانيّته موافقاً؛ لأنّ الله -تعالى اسمه- لم يدلّ على الباطن الخفيّ من العقل إلّا بظاهر منه وناطق عنه**»[1].

وروى العياشيّ، عن سماعة بن مهران، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**أكثروا من أن تقولوا:** ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، **ولا تأمنوا الزيغ**»[2].

وقد فسّر عليّ بن إبراهيم القمّيّ زيغ القلوب بالشكّ[3].

الدعاء في الآية هو من تتمّة كلام الراسخين في العلم، الذين

(1) البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص600؛ ورواها: الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص18.
(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص164.
(3) راجع: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص96.

حكى عنهم أنّهم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا. وهذا الإيمان الثابت يحتاج في بقائه واستمراره إلى التوفيق الإلهيّ والهداية والعناية والرحمة، لكي لا يقع الإنسان في الزيغ، فعندما ذكر حال أهل الزيغ ناسب التعوّذ من ذلك واللجوء إلى الله -تعالى- لحمايتهم من الوقوع في ذلك، كما تشير الرواية المتقدّمة.

وهذا لا ينافي صدور هذا الدعاء عن الراسخين في العلم، الذين يعلمون التأويل، وهم في حرز من الوقوع في شبهات أهل الزيغ، بل هم ضمانة العصمة من الضلال؛ لأنّ ذلك أيضاً من ألطاف الله ورحمته وعنايته.

قال الشيخ في تفسير التبيان: قيل في معنى ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ قولان:

«أحدهما: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ عن الحقّ؛ بمنع اللطف الذي يستحقّ معه أن تنسب قلوبنا إلى الزيغ. والثاني: قال أبو عليّ: معناه ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾عن الثواب بعد أن دعوتنا إليه ودللتنا عليه. ولا يجوز أن يكون المراد لا تزغ قلوبنا عن الإيمان؛ لأنّه -تعالى- كما لا يأمر بالكفر، كذلك لا يزيغ عن الإيمان. فإن قيل: هلا جاز على هذا أن يقولوا: ربّنا لا تظلمنا، ولا تُجِر علينا؟ قلنا لأنّ في تجر علينا تسخّط السائل لاستعماله ممّن جرت عادته بالجَور، وليس كذلك ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ على معنى سؤال اللطف، وإن كان لا يجوز في حكمته -تعالى- منع اللطف، كما لا يجوز، فعل الجور، وذلك بمنزلة سؤال الملائكة في قولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾، والله لا

يجوز عليه خلف الوعد، كما لا يجوز عليه فعل الجور، يبيّن ذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ ومعناه فلمّا مالوا عن الحقّ، نسب الله قلوبهم إلى الزيغ، لِما كانت عليه. وإنّما أضاف الزيغ إلى القلب، وإن كان المراد به الجملة؛ لأنّ القلب أشرف الأعضاء، وهو محلّ السرور والغمّ، فلذلك خُصَّ بالذكر»[1].

وفي الدعاء إقرار بأنّ الهداية من الله -تعالى-، وهو لا ينافي التكليف والاختيار، كما حُقِّق في محلّه.

ثمّ ختموا دعاءهم بطلب الرحمة، ووصف المولى -عزّ وجلّ- بأنّه الوهّاب. والتعريف يفيد الحصر؛ فكلّ واهب إنّما يهب من عطاءات الله ومواهبه. وصيغة فعّال تفيد المبالغة والكثرة.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

جامع الناس ليوم هو يوم الحشر يوم القيامة، الذي لا ريب فيه، حيث يحشر الناس للجزاء، فيجد الذين في قلوبهم زيغ الذين يبتغون التأويل والفتنة، يجدون جزاء أعمالهم، وكذلك أهل الإيمان والتسليم والهداية.

وهذا وعد الله، والله لا يخلف الميعاد.

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص401.

الآيتان (10-11)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾:

الكفر

اللغة: «الكفر: نقيض الإيمان... والكفر: نقيض الشكر... والكفر على أربعة أنحاء: كفر الجحود مع معرفة القلب؛ كقوله -عزّ وجلّ-: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، وكفر المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى بلسانه، وكفر النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر، وكفر الإنكار: وهو كفر القلب واللسان»[1].

أصل الكفر من التغطية: «الرجل يكفر درعه بثوب كفراً، إذا لبسه فوقه، فذلك الثوب كافر الدرع... وكلّ شيء غطّى شيئاً فقد كفره»[2]. «والكافر الزَرَّاعُ؛ لستره البذر بالتراب»[3].

وهنا في الآية، الذين كفروا هم من كفر بنبوّة محمّد ﷺ، وكذّب بها، وإن آمن بالله -تعالى-، وأقرَّ بالألوهيّة والربوبيّة، لكنّ القرآن الكريم قسّم الكافرين إلى قسمَيْن:

1. الذين أشركوا.
2. أهل الكتاب.

(1) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج5، ص356.
(2) المصدر نفسه، ص357.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص146.

1. ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾[1].
2. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾[2].
3. ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾[3].
4. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾[4].
5. ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾[5].

﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾:

«أَغْنَى اللهُ الرجلَ حتّى غَنِيَ غِنًى؛ أي صار له مالٌ...وأَغْنى عنه... نابَ عنه، وأَجْزَأَ عنه مُجْزَأه،... يقال: أَغْنِ عَني شَرَّكَ؛ أي اصْرِفْه وكُفَّهُ، ومنه قوله -تعالى-: ﴿لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾، وحديث ابن مسعود: وأَنا لا أُغْني، لو كانت لِي مَنَعَة؛ أَي لو كان مَعِي مَنْ يَمْنَعُني لكَفَيْت شَرَّهم وصَرَفْتُهم... وما لَك عنه غِنًى... ولا مَغْنًى؛ أَي ما لك عنهُ بُدٌّ. ويقال: ما يُغْني عنك هذا؛ أي ما يُجْزِئُ عنك وما يَنْفَعُك»[6].

(1) سورة آل عمران، الآية 186.
(2) سورة الأنعام، الآية 148.
(3) سورة البقرة، الآية 105.
(4) سورة آل عمران، الآية 70.
(5) السورة نفسها، الآية 98.
(6) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص137 - 139.

الاغترار بالأموال والأولاد

عندما يفتقر الإنسان يشعر بالحاجة، ويلتمس الغنى بالابتهال إلى الله -تعالى-، ولكن إذا وجد حاجته استغنى ونسي أنّ الله هو المنعم والمعطي، قال -تعالى-:

1. ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].
2. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2].
3. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[3].
4. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4].

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

«الوَقُودُ: الحطَب»[5]. وقود النار حطبها.

النار تحتاج إلى ما يؤجّجها، وهؤلاء بما هم عليه من واقع اعتقاديّ وسلوكيّ وأخلاقيّ يؤجّجون النيران، فهل هو من باب

(1) سورة الزمر، الآية 49.
(2) سورة العلق، الآية 6 - 7.
(3) سورة التوبة، الآيتان 75 - 76.
(4) سورة القصص، الآية 78.
(5) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص465.

المبالغة لشدّة اكتوائهم بها، أو لأنّ أعمالهم هي التي فيها خاصيّة الإيقاد؟ كما في أكل مال اليتامى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[2].

لماذا أشار إليهم بالبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؟ أوّلاً: لأنّ الإشارة للذين كفروا المذكورين أوّلاً في الآية، وليس للأموال والأولاد الذين هم أقرب ذكراً فيها، وثانياً يمكن أن يكون -أيضاً- للتحقير، ولبعدهم عن ساحة رحمة الله -عزّ وجلّ-.

وضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ للحصر والتأكيد.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

اللغة: الدَّأبُ: العادَة والمُلازَمَة[3]. وقوله -تعالى-: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي كعادتهم وحالهم. «والدَّأْبُ والدَّأَب بالتَّحْرِيك: العادةُ والشَّأْن... وفي الحديث: عليكم بقيامِ الليلِ، فإنّه دَأْبُ الصالحِينَ قَبْلَكم...، الأَزهريّ: قال الزجّاج في قوله -تعالى-: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أَي كشأْنِ آل فِرْعون، وكأَمْرِ آلِ فِرْعون؛ كذا قال أَهل اللغة»[4].

(1) سورة النساء، الآية 10.
(2) سورة التحريم، الآية 6.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص368.
(4) المصدر نفسه.

وقال في مجمع البحرين: «قوله -تعالى-: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ الدأب بسكون الهمزة وقد تُفتَح: العادة والشأن، وأصله من دأب في العمل إذا جدّ وتعب، فقوله: كدأب آل فرعون؛ أي عادتهم الذين دأبوا فيها؛ أي داموا عليها... والدأب: الملازمة للشيء... وفي الحديث: صلاة الليل دأب الصالحين»[1].

فرعون

قال ابن منظور: "الفَرْعَنَةُ: الكِبْرُ والتَّجَبُّر. وفِرْعَوْنُ كل نَبِيٍّ مَلِكُ دَهْره... وفرعون الذي ذكره الله -تعالى- في كتابه مِن هذا، وإنّما ترك صرفه في قول بعضهم؛ لأَنّه لا سَمِيَّ له كإِبليس فيمن أَخذه من أَبْلَسَ؛ قال ابن سيّده: وعندي أَنّ فرعون هذا العَلَم أَعجميٌّ؛ ولذلك لم يصرف. الجوهريّ: فرعون لقب الوليد بن مُصْعَبٍ مَلِكِ مصر. وكلُّ عاتٍ فِرْعَوْنٌ، والعُتاةُ: الفراعنة»[2].

أقول: إذا كان فرعون أعجميّاً، وهو لقب ملوك مصر، كما رجّحه ابن سيّده وغيره، فلا بدّ من أن يكون الفعل المشتقّ حصل بعد التعريب، وصار لقباً لكلّ عاتٍ عندئذٍ، ولا مانع منه، فله أمثال كثيرة.

ثمّ إنّ فرعون المذكور في القرآن هو فرعون المعاصر لموسى بلا شكّ، على الرغم من أنّ سلالة الملوك العتاة في مصر كلّهم فراعنة. وقد يكون المراد من آل فرعون هم هذه السلسلة من

(1) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج2، ص54.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص323.

الجبابرة، وربّما كان المراد خصوص عشيرة فرعون موسى، وهو أقرب وأنسب بالآيات الأخرى التي تحدّثت عن آل فرعون:

1. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[1].
2. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].
3. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3].
4. ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[4].
5. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[5].
6. ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[6].

(1) سورة البقرة، الآية 50.
(2) سورة الأعراف، الآية 130.
(3) سورة البقرة، الآية 49.
(4) سورة الأعراف، الآية 141.
(5) سورة إبراهيم، الآية 6.
(6) سورة غافر، الآية 28.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الذين سبقوا آل فرعون من الجبابرة والعتاة والظالمين، الذين يشتركون مع آل فرعون في المنهج العمليّ والسلوكيّ وفي المصير. وهذا يؤيّد أن يكون المراد من آل فرعون الذين عاصروا موسى، وتحدّث عنهم القرآن في مواطن عدّة من الكتاب، فلو كان المراد كلّ عاتٍ وجبار لدخلوا ضمن العنوان الأوّل.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾:

الالتفات من الغَيبة إلى الحضور أوّلاً، ثمّ من الحضور إلى الغَيبة، حيث قال: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، بالغَيبة، ثمّ قال: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، بالحضور، ثمّ عاد إلى الغيبة، فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، هذا الالتفات له وجه بلاغيّ لطيف، حيث إنّه عندما تحدّث عن مقام الألوهيّة بما له من القدرة والغنى، وما يترتّب عليه من فقر المخلوق إليه وضعفه بين يديه، عبّر بالغيبة وبالاسم العلم الظاهر، وعاد إليه أخيراً للأمر نفسه الذي بدأ به، وبينهما التفت إلى الحضور عند ذكر الآيات، ربّما لحضورها وجلائها ولأنّ الجحود بها من المعاندة والمكابرة، وهذا أبلغ في التهديد والوعيد. وقد يكون من باب نسبة الآيات إليه وإلى رسله الذي جرت على أيديهم، والله العالم. ويوجد وجه آخر محتمل أن يكون الالتفات إلى الحضور هنا لتنشيط الأذهان، وتقريب الخبر إلى الصدق؛ بجعله من قبيل الشهادة الحّسيّة التي لا تحتاج إلى دليل.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

دون أن يعجزه شيء، ودون أن يغني عنهم شيء ممّا بنوه وجمعوه، ودون أن يتمكّنوا من حماية أنفسهم عندما أغرقهم الله وأنجى موسى ومن معه. وأصل الأخذ: التناول،... ويقال: أُخِذَ فلانٌ بذنبه؛ أي حُبِسَ وجُوزِيَ عليه وعُوقِب به... وقوله -عزّ وجلّ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾: قال الزجّاج: ليتمكّنوا منه فيقتلوه»[1].

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾:

الباء سببيّة أوردها للتعليل مثل قوله -تعالى-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[2]، وفيه تدليل على أنّ الله -تعالى- لا يظلم، وأنّ المكذّبين إنّما يعذَّبون بذنوبهم نفسها أو بسببها.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

تتمّة الوعيد، بالتنبيه على أنّ عقابه ليس من سنخ العقاب الدنيويّ المعروف بين البشر، وإنّما هو عقاب شديد. والعقاب الجزاء على العمل السيّئ. والشديد القويّ.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص472 - 473.
(2) سورة النساء، الآية 160.

الآيتان (12-13)

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾:

في الآيتين إخبار مستقبليّ عن تحقّق الغلبة للمؤمنين على الكافرين، وأنّهم لن يؤمنوا وسيحشرون إلى جهنّم. وهذا من أدلّة الإعجاز القرآنيّ.

وقال الشيخ الطوسيّ قدس سره: «وفي الآية (الثانية عشر) دلالة على صحّة نبوّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّها تضمّنت الخبر عمّا يكون من غلبة المؤمنين للمشركين، وكان الأمر على ما قال. ولا يكون ذلك على الاتفاق. وكما أنّه بيَّن أخباراً كثيرة من الاستقبال، فكان كما قال، فكما أنّ كلّ واحد منهما كان معجزاً، لأنّه من علّام الغيوب اختصّ به الرسول ليبيّنه من سائر الناس، كذلك هذه الآية»[1].

مناسبات النزول

نقل في البرهان عن عليّ بن ابراهيم: «أنّها نزلت بعد بدر، لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بدر أتى بني قينقاع وهو يناديهم، وكان بها سوق يُسمّى بسوق النبط، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**يا معشر اليهود، قد علمتم ما نزل بقريش وهم أكثر عدداً وسلاحاً**

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، ج2، ص406 - 407.

وكُراعاً منكم، فادخلوا في الإسلام، فقالوا: يا محمّد، إنّك تحسب حربنا مثل حرب قومك، والله لو لقيتنا للقيت رجالاً. فنزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾؛ أي لو كانوا مثل المسلمين ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾»[1].

أقول: «والكُراعُ: اسم يجمع الخيل. والكُراعُ: السلاحُ، وقيل: هو اسم يجمع الخيل والسلاح»[2].

وفي نور الثقلين: «في مجمع البيان: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾ الآية، روى محمّد بن أسحاق بن يسار عن رجاله قال: «لمّا أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشاً ببدر، وقَدِم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: **يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلِموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنّي نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم**، فقالوا: يا محمّد، لا يغرنّك أنّك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، أما -والله- لو قاتلنا لعرفت أنّا نحن الناس، فأنزل الله هذه الآية...»[3].

---

(1) البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص601؛ القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص97.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج8، ص307.

(3) الحويزيّ، الشيخ عبد عليّ بن جمعة، تفسير نور الثقلين، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1412هـ.ق - 1370هـ.ش، ط4، ج1، ص320؛ وقد وردت في: الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص248.

وفي مجمع البيان: «وقيل: نزلت في مشركي مكّة، ستغلبون يوم بدر. عن مقاتل، وقيل: بل نزلت في اليهود لمّا قُتل الكفّار ببدر وهُزموا، قالت اليهود: إنّه النبيّ الأمّيّ الذي بشّرنا به موسى، ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وإنّه لا تُردّ له راية، ثمّ قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتّى تنظروا إلى وقعة أخرى، فلمّا كان يوم أُحُد، ونُكب أصحاب رسول الله، شكّوا وقالوا: لا -والله- ما هو به، فغلب عليهم الشقاء فلم يُسلِموا، وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدّة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله؛ وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكّة في ستّين راكباً، فوافقوهم وأجمعوا أمرهم على رسول الله: لتكوننّ كلمتنا واحدة، ثمّ رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله فيهم هذه الآية»[1].

معاني المفردات

الحشر: «الحشر: الجمع مع سَوْق»[2]، و«الحشر حشر يوم القيامة، وقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[3]، قيل: هو الموت»[4].

قوله: «﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[5]؛ أي أوّل من حُشر وأُخرج من داره وهو الجلاء. وعن الأزهريّ: هو أوّل من حُشر إلى الشام، يحشر إليها يوم القيامة»[6].

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص248.
(2) المصدر نفسه.
(3) سورة الأنعام، الآية 38.
(4) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج3، ص92.
(5) سورة الحشر، الآية 2.
(6) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص268.

«والمَحْشَرُ: المجمع الذي يُحشر إليه القوم، وكذلك إذا حُشروا إلى بلد أو مُعَسْكَر أو نحوه»[1].

«قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[2]؛ أي جمعت»[3].

1. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[4].
2. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[5].
3. ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[6].
4. ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾[7].
5. ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[8].

جهنّم

«الجَوْهري: جَهَنَّم من أَسماء النار التي يعذّب الله بها عباده، نعوذ بالله منها... وقال اللحيانيّ: جِهنَّام اسم أَعجميّ... الأَزهريّ: في جَهَنَّم قولان: قال يونس بن حبيب وأَكثر النحويّين: جهنّم اسم النار التي يعذّب الله بها في الآخرة، وهي أَعجميّة لا تُجْرَى للتعريف والعُجْمة، وقال آخرون: جَهَنَّم عربيّ، سمّيت نار الآخرة بها لبُعْد

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص190.
(2) سورة التكوير، الآية 5.
(3) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص269.
(4) سورة النمل، الآية 17.
(5) سورة الأحقاف، الآية 6.
(6) سورة ق، الآية 44.
(7) سورة الأنعام، الآية 111.
(8) سورة الكهف، الآية 47.

قَعْرِها، وإنّما لم تُجْرَ لِثقَلِ التعريف وثِقَل التأْنيث، وقيل: هو تعريب كِهِنَّام بالعِبْرانيّة... وقال ابن خالويه: بئر جِهِنَّامٌ -بكسر الجيم والهاء- للبعيدة القعر، ومنه سمّيت جهنّم، قال: فهذا يدلّ أَنّها عربيّة...»[1].

وهو ممّا اتفق عليه المفسّرون وأهل اللغة.

وفي مجمع البحرين: «هو فارسيّ معرّب»[2].

المهاد: الفراش.

ما المراد من الذين كفروا؟

وفي تفسير الميزان: «وظاهر السياق أنّ المراد (بالذين كفروا) هم المشركون، كما أنّه ظاهر الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ «إلخ» دون اليهود، وهذا هو الأنسب لاتّصال الآيتين حيث تذكر هذه الآية الغلبة عليهم وحشرهم إلى جهنّم وقد أشارت الآية السابقة إلى تقوّيهم وتعزّزهم بالأموال والأولاد»[3].

أقول: ولكن ما ورد في مناسبات نزول الآية يقتضي أن يكون المراد بالذين كفروا اليهود؛ لأنّهم هم الذين ورد فيهم الخطاب، فتأمّل. ومهما يكن، فيمكن إرادة العموم وما يشمل الفريقين معاً.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص112.
(2) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج6، ص32.
(3) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص92.

والمعنى ستُغلَبون في الدنيا على أيدي المؤمنين، وتُحشَرون يوم القيامة إلى جهنّم، وبئس المهاد الذي مهّدتم لأنفسكم؛ بكفركم وعنادكم ومحاربتكم للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾:

الغلبة هنا القهر في المواجهة والحرب القائمة، أو التي يتوعّد بها الذين كفّروا المؤمنين، فيخبرهم أنّهم لن ينتصروا، بل سيُغلبون ويكون مصيرهم، إذا أصرّوا على كفرهم، أن يحشرهم الله -تعالى- إلى نار جهنّم، ليجازيهم بما فعلوا وحاربوا الله ورسوله.

«الحشر هو إخراج الجماعة من مقرّهم بالإزعاج، ولا يستعمل في الواحد، قال -تعالى-: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[1]»[2].

والمورد الوحيد في القرآن الذي جاء الحشر فيه مسنداً إلى مفرد هو هذا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[3]، ومع ذلك هو لا يخالف كون الحشر للجماعة، كما نصّ عليه العلّامة الطباطبائيّ؛ لأنّ المراد هنا لتبيان حال المحشور عند حشره مع الجماعة وليس الحشر.

(1) سورة الكهف، الآية 47.
(2) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص92.
(3) سورة طه، الآيتان 124 - 125.

والحشر لا يختصّ بسَوق المجرمين والكافرين، قال -تعالى-: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[1].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾:

المقصود بالمهاد القرار والفراش الممهّد، وهو ما يلجأ إليه الإنسان للراحة بعد طول العناء، وهم مهادهم جهنّم وعذابها، التي مهّدوها لأنفسهم بكفرهم وعنادهم وسوء عملهم. فهو من المجاز، حيث إنّ الإنسان يجدّ ويعمل ويُتعب نفسه ليلجأ في آخر يومه إلى مهاده الذي يشعر فيه بالراحة والاطمئنان، وهؤلاء بعد عمر قضَوه بالعمل الذي أحبطوه بكفرهم، والجهود التي بذلوها في مواجهة النبيّ ﷺ والرسالة التي جاء بها، لن يجدوا ما يريحهم، بل ينتظرهم العذاب الأليم والخلود فيه، فبئس المهاد.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾:

ظاهر السياق أن يكون الخطاب ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والكلام من تتمّة ما أمر الله النبيّ ﷺ بقوله لهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾.

ومن الممكن أن يكون خطاباً للمؤمنين، بدعوتهم إلى الاعتبار والتفكّر بما منّ الله عليهم يوم بدر، حيث أيّدهم بنصره تأييداً عجيباً بالتصرّف في أبصار العيون؛ وعلى هذا يكون الكلام مشتملاً على نوع من الالتفات بتوسعة خطاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُل

(1) سورة مريم، الآية 85.

﴿لِّلَّذِينَ﴾ بتوجيهه إليه وإلى مَن معه مِن المؤمنين، لكنّ السياق، كما عرفت، للأوّل أنسب.

في نور الثقلين: «عن مجمع البيان: ﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾، الآية في قصّة بدر، وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار، واختلف في عدّة المشركين، فروي عن عليّ عليه السلام وابن مسعود أنّهم كانوا ألفاً»[1].

الفئة: الطائفة والجماعة والفرقة، قال -تعالى-:

1 - ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

2 - ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

3 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4].

4 - ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾[5].

﴿ٱلْتَقَتَا﴾:

في الحرب، إحداهما في مواجهة الأخرى.

(1) الشيخ الحويزيّ، تفسير نور الثقلين، مصدر سابق، ج1، ص320؛ وراجع: الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص247.
(2) سورة البقرة، الآية 249.
(3) سورة الأنفال، الآية 16.
(4) السورة نفسها، الآية 45.
(5) سورة الكهف، الآية 43.

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سبيل الله هو الطريق الذي شرّعه الله -تعالى- لعباده، وهو طريق الحقّ والهدى والإيمان، ويتحقّق بجعل أهداف القتال وغاياته ترتبط بالدين وإقامته والدفاع عنه.

﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾:

لمّا كانت الفئة الثانية كافرة، فإنّها عندما تقاتل فهي تقاتل للصدّ عن سبيل الله؛ بمقتضى الكفر، ولم يقل -تعالى-: تقاتل في سبيل الطاغوت أو الشيطان؛ لوضوح ذلك، فإنّ من لا يسلك سبيل الله فهو على نهج الطاغوت.

﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾:

الظاهر أنّ ضمير المفعول في ﴿يَرَوۡنَهُم﴾ يعود على الفئة التي تقاتل في سبيل الله، وضمير الفاعل يعود على مقاتلي الفئة الكافرة.

وبين هذه الآية والآية 44 من سورة الأنفال تغاير في الظاهر على فرض وحدة المورد، ففي الأنفال قال -تعالى-: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

التنافي بين الآيتين إنّما يتحقّق مع اتّحاد الموقف والمقام، ولا دليل على ذلك؛ لإمكان أن يقلّل الله -سبحانه- كلًّا من الطائفتين في عين صاحبتها في بدء التلاقي أو قبل التلاقي؛ لتُشدّ بذلك قلوبهم

وتزيد جرأتهم على القتال، حتّى إذا نشبت المعركة وحمي الوطيس رأى الكافرون المؤمنين مثلي عددهم، فانهزموا بذلك وولّوا الأدبار.

وقد ذهب بعضهم إلى طريقة أخرى في حلِّ التنافي الظاهريّ، من خلال إدخال الملائكة التي أنزلها الله -تعالى- لتقاتل مع المؤمنين ممّا زاد في عددهم، ولكنّ هذا لو كان مرئيّاً للمشركين لكان تكثيراً حقيقيّاً، وليس في الأعين فحسب.

﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾:

الضمير: قيل يعود على المشركين، وقيل على المسلمين، وعلى الأوّل يرونهم ألفَيْن، وعلى الثاني ستمائة وستّة وعشرين.

﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾:

تأكيد على أنّ الرؤية لم تكن توهّماً، وإنّما بالمشاهدة الحسّيّة، وهذا الأمر يقتضي أن يكون التصرّف حصل في الرؤية وليس في الواهمة؛ ممّا فتح نقاشاً فلسفيّاً حول ذلك، نُعرض عن الخوض فيه، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

النصر من عند الله كما أشارت آيات كثيرة، لكن ما هي الأسباب التي تستدعي إعمال مشيئته وتأييد فريق دون آخر؟ فمشيئته -تعالى- ليست عبثيّة، وإنّما هي وفق الحكمة. وفيه إشارة إلى أنّ

النصر والغلبة التي تحقّقت للمسلمين على الكافرين إنّما هي من الله -تعالى-، وليست من نتائج القوّة والأسباب الظاهريّة التي هي على خلاف ذلك.

«العبرة: بالكسر الاسم من الاعتبار وهو الاتّعاظ، لمن يعتبر من أُولي الأبصار والألباب، وهم الذين يُعملون بصيرتهم وبصرهم فيروا الحقيقة. وهو ما يفيده الفكر إلى ما هو الحقّ من وجوب ترك الدنيا والعمل للآخرة، واشتقاقها من العبور؛ لأنّ الإنسان ينتقل فيها من أمر إلى أمر»[1]. موعظة لذوي العقول.

الآية (14)

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾:

المفردات

الزين

نقيض الشين[2]. «والزِّينَةُ: ما يتزيّن به»[3].

(1) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص393.
(2) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج7، ص387.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص202.

الشهوات

جمع شهوة؛ أي حبّ شيء من الأشياء حبّاً شديداً، ولكنّها في هذه الآية بمعنى المشتهيات. «شَهِيَ الشيءَ وشَهاهُ يَشْهاهُ شَهْوَةً واشْتَهاهُ وتَشَهّاهُ: أَحَبَّه ورَغِب فيه»[1].

القناطير

جمع قنطار، «والقِنْطارُ: مِعْيارٌ»[2]، «ثمّ أطلق على المال الكثير»[3]. «وقيل: وَزْنُ أَربعين أُوقية من ذهب، وقالت طائفة: مائة أُوقية من ذهب، وقيل: مائة أُوقية من الفضّة، وقيل: أَلف أُوقية من الذهب، وقيل: أَلف أُوقية من الفضّة، وعن أَبي عبيد: أَلف ومائتا أُوقية، وقيل: مائة وعشرون رطلًا، وقال السُّدِّيّ: مائة رطل من ذهب أَو فضّة، ويقال: أَربعة آلاف دينار، ويقال: أَربعة آلاف درهم، ويقال: أَلف ومائة دينار، وقيل: سبعون أَلف دينار، وقال ابن عبّاس: «ثمانون أَلف درهم، وقيل: هي جملة كثيرة مجهولة من المال، والمعمول عليه عند العرب الأَكثر أَنّه أَربعة آلاف دينار. ويقال هو بالسُّريانيّة مِلءُ مَسْك ثَوْر ذهباً أَو فضّة، وبالبربريّة: ألف مثقال من ذهب أو فضّة. وفي التصريف مخرّجه على قول العرب؛ لأنّ الرجل يقنطر قنطاراً، كلّ قطعة أربعون أوقية، كلّ أوقية وزن سبعة مثاقيل. ومنه: قَناطِيرُ مُقَنْطَرَةٌ... فالمُقَنْطَرة: مُفَنْعَلة من لفظه؛ أي مُتَمَّمة، قِنْطار مُقَنْطَر: مَكَمَّل، كما قالوا أَلف مُؤَلَّفة

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص445.
(2) المصدر نفسه، ج5، ص118.
(3) الشيخ الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج2، ص419.

مُتَمَّمة، ويجوز القناطير في الكلام، والمُقَنْطَرَةُ تسعة، والقناطير ثلاثة، ومعنى المُقَنْطَرة المُضَعَّفة»[1].

«الخَيْلُ المُسَوَّمة: المَرْعِيَّة، والمُسَوَّمَةُ: المُعَلَّمةُ... السُّومَةُ والسِّيمةُ والسِّيماء والسِّيمِياءُ: العلامة... وسَوَّمَ الفرسَ: جعل عليه السِّيمة...وسَوَّمَ فلانٌ فرسه: إذا أَعْلَم عليه بحريرة أَو بشيء يعرف به»[2].

«السَوم: من سير الإبل وهبوب الريح إذا كانت مستمرّة في سكون»[3].

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾:

أَي يُجَشِّمونَكم أَشَدَّ العذاب... السَّوْمِ: التكليف[4].

الأنعام: «قال ابن الأَعرابي: النَّعم الإبل خاصّة، والأَنعام الإبل والبقر والغنم. والعرب إذا أَفردت النَّعَم لم يريدوا بها إلّا الإبل، فإذا قالوا الأَنعام أَرادوا بها الإبل والبقر والغنم»[5].

الحرث: الزرع[6].

متاع: ما ينتفع به بشكل موقّت[7].

المآب: المرجع[8].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص118 - 119.
(2) المصدر نفسه، ج12، ص312.
(3) الفراهيدي، العين، مصدر سابق، ج7، ص319.
(4) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص312.
(5) المصدر نفسه، ص585.
(6) راجع، الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج2، ص248.
(7) راجع: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج8، ص333.
(8) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج8، ص417.

التّفسير

الآية وما يتلوها بمنزلة البيان وشرح حقيقة الحال لما تقدّم من قوله -تعالى- آنفاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾... إلخ؛ إذ يظهر منه أنّهم يعتقدون الاستغناء بالأموال والأولاد من الله -سبحانه-. فالآية تبيّن أنّ سبب ذلك أنّهم انكبّوا على حبّ هذه المشتهيات، وانقطعوا إليها عمّا يهمّهم من أمر الآخرة، وقد اشتبه عليهم الأمر؛ فإنّ ذلك متاع الحيوة الدنيا، ليس لها إلّا أنّها مقدّمة لنيل ما عند الله من حسن المآب.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

أي حبّ المشتهيات، ولم يُرَد بها الشهوة نفسها، ولهذا فُسّرت بالنساء والبنين وغيرهما ممّا ذكر. والبناء للمجهول ﴿زُيِّنَ﴾ لتجهيل الفاعل؛ لعدم تعلّق الغرض به. فمن زيّنها لهم؟

قيل: الشيطان، (عن الحسن) قال: فوالله ما أجد أذمّ للدنيا ممن خلقها.

وقيل: زيّنها الله لهم، بما جعل في الطباع من الميل إليها، وبما خلق فيها من الزينة محنةً وتشديداً للتكليف، كما قال -سبحانه-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وقيل: زيّن الله -تعالى- ما يحسن منه، وزيّن الشيطان ما يقبح. (عن أبي عليّ الجبائي).

ثمّ قدّم -سبحانه- ذكر النساء فقال: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ لأنّ الفتنة بهنّ أعظم.

روي عن النبيّ ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء**»، وقال: «**النساء حبائل الشيطان**»[1].

وروي أنّ النبيّ ﷺ قال للأشعث بن قيس: «**هل لك من ابنة حمزة من ولد**؟ قال: نعم، لي منها غلام، ولوددت أنّ لي من جفنة من طعام أطعمها من معي من بني جبلة، فقال: **لئن قلت ذاك، إنّهم لثمرة القلوب وقرّة الأعين، وإنّهم مع ذلك لمَجبَنة مَبخَلة مَحزَنة**»[2].

وما ينبغي التأكيد عليه، أنّ الله -سبحانه وتعالى- حكيم، خلق الخلق وجعل فيهم الرغبات لتتمّ بها الحكمة، بحفظ النسل وبقاء النوع وتزويد البدن بما يحتاج إليه للقيام بدوره وتكليفه، لكنّ الاستغراق في المشتهيات بما يتجاوز حدود الحكمة التي حدّدتها الشريعة بما أباحته منها هو الذي يجعل الانسان فريسة لها وأسيرها، فتزيينها بالأساس لا مانع من أن يكون بالخلق، وما أودع من الطبيعة البشريّة، ومع ذلك فالشيطان يزيّنها بما يزيد في الرغبة حتّى التمادي والانجذاب إليها بما يتجاوز الحدود، فتوجد مرتبتان من التزيين، والله العالم.

قال في الأمثل: «إنّ التفسير الذي يبدو صحيحاً هو أنّ الله هو الذي زيّن للناس ذلك عن طريق الخلق والفطرة والطبيعة الإنسانيّة. إنّ الله هو الذي جعل حبّ الأبناء والثروة في جبلّة الإنسان؛ لكي يختبره ويسير به في طريق التربية والتكامل، كما يقول القرآن: ﴿إِنَّا

(1) راجع: الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص252.
(2) المصدر نفسه؛ الثعلبيّ، أبو محمّد بن عاشور، الكشف والبيان عن تفسير القرآن(تفسير الثعلبيّ)، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربيّ، 1422هـ.ق - 2002م، ط1، ج3، ص23.

﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. وممّا يثير الالتفات في الآية أنّ الزوجة أو المرأة قد وردت أوّلاً، وهذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم: إنّ الغريزة الجنسيّة من أقوى الغرائز في الإنسان، كما أنّ التاريخ المعاصر والقديم يؤيّد أنّ كثيراً من الحوادث الاجتماعيّة ناشئة من طغيان هذه الغريزة.

وينبغي القول أيضاً: إنّ هذه الآية والآيات المشابهة لا تذمّ العلائق المعتدلة مع المرأة والأولاد والمال؛ لأنّ التقدّم نحو الأهداف المعنويّة غير ممكن بدون الوسائل المادّيّة، وهي لا تتعارض مع نواميس الخلق الطبيعيّة. إنّما المذموم هو الإفراط في هذه العلائق، وبعبارة أخرى: المذموم هو عبادة هذه الأمور»[2].

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾:

تقدّم المعنى اللغويّ للقناطير المقنطرة. وليس المراد هنا مقدار محدّد، وإنّما هو تعبير عن الكثرة الضاعفة، وهذا لا يضرّ به الاختلاف على تحديد مقدار القنطار أو عدم تحديده، فقد ورد هنا بالجمع والمضاعفة، الأمر الذي يؤيّد الكثرة التي لا تقف عند حدّ.

(1) سورة الكهف، الآية 7.
(2) الشيخ الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج2، ص418.

﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾:

المعلَّمة والأصيلة تعدّ من مصاديق المشتهيات التي يسعى الناس إلى امتلاكها منذ القديم.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾:

الإبل والبقر والغنم والأراضي المزروعة كلّها من الموارد الماليّة الأساسيّة.

فهذه ثلاثة أنواع من المشتهيات الدنيويّة الرئيسة وثروات الحياة المادّيّة: النساء والأولاد والأموال.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

ذلك إشارة الى ما ذكر من أنواع المشتهيات. ومتاع الحيوة الدنيا منفعتها التي لا تدوم.

المتاع

«المَتاعُ من أَمْتِعةِ البيت ما يَسْتَمْتِعُ به الإِنسان في حَوائِجه، والمَتاعُ البُلْغةُ يُتَبلَّغُ به؛ أي ينتفع به بعض الوقت لا بقاء له. وكلّ شيء تمتّعت به فهو متاع، تقول: إنّما العيش متاع أيّام ثمّ يزول؛ أَي بَقاء أَيّام»[1]. والدنيا متاع الغرور.

الدنيا

«والدُّنْيا نَقِيضُ الآخرة، من الدنوّ انْقَلَبت الواو فيها ياءً؛ لأَنّ

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج8، ص332.

فُعْلى إذا كانت اسماً من ذوات الواو أُبدلت واوُها ياءً، كما أُبدلت الواو مكان الياء في فَعْلى، فأَدخَلوها عليها في فُعْلى ليَتكافآ في التغيير؛ قال ابن سيّده: هذا قول سيبويه، قال: وزدته أَنا بياناً... وفي حديث الحجّ: الجَمْرة الدُّنْيا؛ أَي القَرِيبة إِلى مِنىً، وهي فُعْلى من الدُّنُوّ... والدُّنْيا أيضاً: اسمٌ لهذه الحَياةِ لبُعْدِ الآخرة عَنْها، والسماء الدُّنْيا لقُرْبها من ساكِني الأَرْضِ»[1].

كما أنّ الحياة الدنيا هي الحياة الواطئة الحقيرة، من دنوّ المنزلة والمكانة، في قبال الآخرة التي هي الأعلى والأسمى والحياة الحقيقيّة.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾:

حسن المرجع، فيكون معنى الآية: إذا عشق أحد هذه الأشياء التي وصفها، وتعلّق بها، وانشغل بطلبها عمّا سواها، وجعلها غاية الغايات للحياة، ولم يستفد منها كسلّم للسموّ في مسيرة حياته، ووسيلة للإعداد لحياته في آخرته، يكون قد اختار لنفسه حياة منحطّة.

فالحياة الدنيا فيها إشارة إلى سير الحياة التكامليّ؛ إذ إنّ الحياة الدنيا مرحلة أولى في ذلك السير، وعلى العبد أن يعمل للحياة السامية التي تنتظر الإنسان، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾[2].

السؤال الذي يطرح عند قراءة الآية الشريفة:

إنّ هذه المشتهيات ممّا خلقه الله -سبحانه-، ومع ذلك وصفها بأنّها متاع الحياة الدنيا وذمّ من أحبّها وتعلّق بها؟

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص273.
(2) راجع: الشيخ الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج2، ص419 - 420.

قال في الميزان: «قوله -تعالى-: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ مع أنّهم غير مبدعين في هذا الحبّ والاشتهاء ولا (هم) مبتكرون، بل مسخّرون بالتسخير الإلهيّ، بتغريز أصل هذا الحبّ فيهم ليتمّ لهم الحياة الأرضيّة، فلولا ذلك لم يستقم أمر النوع الإنسانيّ في حياته وبقائه بحسب ما قدّره الله -سبحانه- من أمرهم، حيث قال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

وإنّما قُدّر لهم ذلك ليتّخذوها وسيلة إلى الدار الآخرة، ويأخذوا من متاع هذه ما يتمتّعون به في تلك، لا لينظروا إلى ما في الدنيا من زخرفها وزينتها بعين الاستقلال، وينسوا بها ما وراءها، ويأخذوا الطريق مكان المقصد، في عين أنّهم سائرون إلى ربّهم، قال -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾[2].

إلّا أنّ هؤلاء المغفّلين أخذوا هذه الوسائل الظاهرة الإلهيّة، التي هي مقدّمات وذرائع إلى رضوان الله -سبحانه-، أموراً مستقلّة في نفسها، محبوبة لذاتها، وزعموا أنّها تغني عنهم من الله شيئاً، فصارت نقمة عليهم بعد ما كانت نعمه ووبالاً بعد ما كانت مثوبة مقرّبة، قال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾[3]

(1) سورة البقرة، الآية 36.
(2) سورة الكهف، الآيتان 7 - 8.
(3) سورة يونس، الآية 24.

إلى أن قال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[1]، إلى أن قال: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[2]، تشير الآيات إلى أن أمر الحياة وزينتها بيده -تعالى- لا وليّ لها دونه، لكنّ الإنسان باغتراره بظاهرها يظنّ أنّ أمرها إليه، وأنّه قادر على تدبيرها وتنظيمها، فيتّخذ لنفسه فيها شركاء -كالأصنام وما بمعناها من المال والولد وغيرهما-، إنّ الله سيوقفه على زلّته، فيُذهب هذه الزينة، ويزيل الروابط التي بينه وبين شركائه، وعند ذلك يضلّ عن الإنسان ما افتراه على الله من شريك في التأثير، ويظهر له معنى ما علمه في الدنيا وحقيقته، ورُدّ إلى الله مولاه الحقّ.

وهذا التزيّن أعني: ظهور الدنيا للإنسان بزينة الاستقلال وجمال الغاية والمقصد، لا يستند إلى الله -سبحانه-، فإنّ الربّ العليم الحكيم أمنع ساحة من أن يدبّر خلقه بتدبير لا يبلغ به غايته الصالحة، بل إن استند فإنّما يستند إلى الشيطان، قال -تعالى-: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[4].

نعم، لله -سبحانه- الإذن في ذلك ليتمّ أمر الفتنة، وتستقيم التربية، كما قال -تعالى-: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(1) سورة يونس، الآية 28.
(2) السورة نفسها، الآية 30.
(3) سورة الأنعام، الآية 43.
(4) سورة الأنفال، الآية 48.

صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[1]. وعلى هذا الإذن، يمكن أن يُحمَل قوله -تعالى-: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾[2]، وإن أمكن أيضاً أن يُحمَل على ما مرَّ من معنى التزيين المنسوب إليه -تعالى- في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[3].

وبالجملة، التزين تزيينان: تزين للتوسّل بالدنيا إلى الآخرة، وابتغاء مرضاته في مواقف الحياة المتنوّعة بالأعمال المختلفة المتعلّقة بالمال والجاه والأولاد والنفوس، وهو سلوك إلهيّ حَسَن، نسبه الله -تعالى- إلى نفسه، كما مرَّ من قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ الآيات، وكقوله -تعالى-: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾[4]. وتزيين لجلب القلوب، وإيقافها على الزينة، وإلهائها عن ذكر الله، وهو تصرّف شيطانيّ مذموم، نسبه الله -سبحانه- إلى الشيطان، وحذّر عباده منه، كما مرَّ من قوله -تعالى-: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الآية، وقوله -تعالى- فيما يحكيه من قول الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[5]، وقوله -تعالى-: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات.

(1) سورة العنكبوت، الآيات 2 - 4.
(2) سورة الأنعام، الآية 108.
(3) سورة الكهف، الآية 7.
(4) سورة الأعراف، الآية 32.
(5) سورة الحجر، الآية 39.
(6) سورة التوبة، الآية 37.

وهذا القسم ربّما نسب إليه -تعالى- من حيث إنّ الشيطان وكلّ سبب من أسباب الخير أو الشرّ إنّما يعمل ما يعمل، ويتصرّف في ملكه ما يتصرّف بإذنه، لينفّذ ما أراده وشاءه، وينتظم بذلك أمر الصنع والإيجاد، ويفوز الفائزون بحسن إرادتهم واختيارهم، ويمتاز المجرمون.

وبما مرّ من البيان، يظهر أنّ المراد من فاعل التزيين المبهم في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾... إلخ، ليس هو الله -سبحانه-، فإنّ التزيين المذكور، وإن كان له نسبة إليه -تعالى-، سواء كان تزييناً صالحاً لأن يدعو إلى عبادته -تعالى-، وهو المنسوب إليه بالاستقامة، أو تزييناً ملهيّاً عن ذكره -تعالى-، وهو المنسوب إليه بالإذن، لكن لاشتمال الآية على ما لا ينسب إليه مستقيماً كما يجيء بيانه، كان الأليق بأدب القرآن أن ينسب إلى غيره -تعالى-؛ كالشيطان أو النفس.

ومن هنا، يظهر صحّة ما ذكره بعض المفسّرين: إنّ فاعل (زيّن) هو الشيطان؛ لأنّ حبّ الشهوات أمر مذموم، وكذا حبّ كثرة المال مذموم، وقد خصّ -تعالى- بنفسه ما ذكره في آخر الآية وفي ما يتلوها.

ويظهر به فساد ما ذكره بعضهم: إنّ الكلام في طبيعة البشر والحبّ الناشئ فيها، ومثله لا يسند إلى الشيطان بحال، وإنّما يسند إليه ما هو من قبيل الوسوسة التي تزيّن للإنسان عملاً قبيحاً.

قال: ولذلك لم يسند إليه القرآن إلّا تزيين الأعمال، قال -تعالى-:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2]، وأمّا الحقائق وطبائع الأشياء فلا تسند إلاّ إلى الخالق الحكيم الذي لا شريك له، قال -عزّ وجلّ-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[4]، فالكلام في الأمم كلام في طبائع الاجتماع»[5]، انتهى.

الآيات (15-17)

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾:

المفردات

الإنباء: الإخبار، والنبأ الخبر[6].

الخير: مقابل الشرّ، وخير يأتي للتفضيل، فيقال: هذا خير من هذا؛

(1) سورة الأنفال، الآية 48.
(2) سورة الأنعام، الآية 43.
(3) سورة الكهف، الآية 7.
(4) سورة الأنعام، الآية 108.
(5) الشيخ الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج3، ص95 - 97.
(6) راجع: الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج1، ص404.

أي يفضله، وهو خَيْرٌ منك وأَخْيَرُ. وهذا الأخير ربّما غير مستعمل[1]، قال ابن منظور: «فإن أَردت معنى التفضيل قلت: ... فلانٌ خَيْرُ الناس، ولم تقل أَخْيَرُ»[2]، «ويكون اسم فاعل لا يراد به التفضيل»[3].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[4]، ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[5]، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[6]، ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[7].

قالوا: «خير لا يُثنّى ولا يجمع؛ لأنّه في معنى أَفعل»[8]، ولكن ورد ذكر الخيرات في القرآن ثماني مرّات: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[9]، ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[10]، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[11]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾[12]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[13]، ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[14]، ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[15]، ونصّوا على أنّه جمع خيرة[16].

---

(1) راجع: الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص297.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص264.
(3) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص297.
(4) سورة الأنفال، الآية 23.
(5) سورة النور، الآية 33.
(6) سورة الأعراف، الآية 26.
(7) سورة البقرة، الآية 184.
(8) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص264.
(9) سورة الرحمن، الآية 70.
(10) سورة البقرة، الآية 148؛ سورة المائدة، الآية 48.
(11) سورة آل عمران، الآية 114.
(12) سورة التوبة، الآية 88.
(13) سورة الأنبياء، الآية 73.
(14) السورة نفسها، الآية 90.
(15) سورة المؤمنون، الآية 56.
(16) راجع: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص264.

اتّقوا

«اتَّقى كان في الأَصل اوْتَقى، والتاء فيها تاء الافتعال، فأُدغمت الواو في التاء وشدّدت، فقيل اتَّقى، ثمّ حذفوا أَلف الوصل والواو التي انقلبت تاء، فقيل تَقى يَتْقي، بمعنى استقبل الشيء وتَوَقَّاه، وإِذا قالوا اتَّقى يَتَّقي فالمعنى أَنّه صار تَقِيّاً، ويقال في الأَوّل تَقى يَتْقي ويَتْقى... وقد توَقَّيْتُ واتَّقَيْتُ الشيء وتَقَيْتُه أَتَّقِيه وأَتْقِيه تُقًى وتَقِيَّةً وتِقاء: حَذِرْتُه؛ الأَخيرة عن اللحيانيّ، والاسم التَّقْوى، التاء بدل من الواو والواو بدل من الياء»[1].

جنّات

الجَنَّةُ: البُسْتانُ والحديقة، وجمعها جنّات وجِنان. والعربُ تسمِّي النخيلَ جَنَّةً[2]، «والجَنَّةُ: هي دارُ النعيم في الدار الآخرة، من الاجْتنان، وهو السَّتْر لتَكاثُفِ أَشْجارِها وتظليلها بالتِفافِ أَغصانِها، قال: وسمّيت بالجَنَّة وهي المرَّة الواحدة من مَصْدر جَنَّه جَنّاً إذا ستَرَه، فكأَنها سَتْرةٌ واحدةٌ لشدَّةِ التِفافِها وإِظْلالِها»[3].

خالدين

الخلود: البقاء. «الخُلْد: دوام البقاء في دار لا يخرج منها... ودار الخُلْد: الآخرة لبقاءِ أَهلها فيها... وأَهل الجنّة خالدون مُخَلَّدون آخر الأَبد، وأَخلد الله أَهل الجنّة إِخلاداً، وقوله -تعالى-: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص402 - 403.
(2) المصدر نفسه، ج13، ص99 - 100.
(3) المصدر نفسه.

﴿مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾؛ أي يعمل عمل من لا يظنّ مع يساره أنّه يموت... وأخلد فلان إلى كذا؛ أي ركن إليه ورضي به»[1].

أزواج

جمع زوج، وهو يطلق على كلّ من الرجل والمرأة، والقرآن لم يؤنّث الزوج مطلقاً.

مطهّرة

الطهر معروف، ولعلّه هنا من الخبث الموجب للنفور، كما هي حال الأزواج في الدنيا حين الطمث وغيره، ممّا يوجب الاجتناب.

رضوان

أعلى مراتب الرضى، ورد في القرآن ثماني مرّات:

1. ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[2].
2. ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[3].
3. ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص164.
(2) سورة آل عمران، الآية 15.
(3) السورة نفسها، الآية 162.
(4) السورة نفسها، الآية 174.

4. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

5. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

6. ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

7. ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[4].

8. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[5].

بصير

فعيل للمبالغة بكثرة الإبصار، فهو لا يخفى عليه خافية.

(1) سورة التوبة، الآية 21.
(2) السورة نفسها، الآية 72.
(3) السورة نفسها، الآية 109.
(4) سورة الحديد، الآية 20.
(5) السورة نفسها، الآية 27.

والبصير: العالم، البَصَرُ: العلم. بَصُرْتُ بالشيء: علمته؛ قال -عزّ وجلّ- حكاية عن السامريّ[1]: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾[2].

العباد

جمع عبد، وهل يختلف عن العبيد؟ «العَبْدُ: المملوك خلاف الحرّ؛... والجمع أَعْبُد وعَبِيد وعِبادٌ وعُبُدٌ»[3]، «والعباد في الحديث والقرآن جمع عبد، وهو خلاف الحرّ، والعبيد مثله، وله جموع كثيرة، والأشهر منها أعبد وعبيد وعباد»[4].

قال الأَزهريّ: «اجتمع العامّة على التفرقة ما بين عِباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عَبْد من عِباد الله، وهؤُلاء عَبيدٌ مماليك... ويقال للمشركين هم عَبَدَةُ الطاغوت، ويقال للمسلمين عِبادُ الله يعبدون الله»[5].

القانتين

«قنتوا لله؛ أي أطاعوه، ومنه القنوت؛ أي الطاعة، وقانتون؛ أي مطيعون. والقنوت: الدعاء في آخر الوتر قائماً، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، وهو الدعاء قياماً هاهنا. وقنتت المرأة لزوجها؛ أي أطاعته»[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص65.
(2) سورة طه، الآية 96.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص270.
(4) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص94.
(5) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص271.
(6) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج5، ص125.

والقُنُوتُ: الخُشُوعُ والإِقرارُ بالعُبوديّة، والقيامُ بالطاعة التي ليس معها مَعْصِيَةٌ؛ وقيل: القيامُ، وزعم ثعلبٌ أَنّه الأَصل، وقيل: إِطالةُ القيام»[1].

الأسحار

جمع سحر، وهو القطعة الأخيرة من الليل قبل طلوع الفجر. والعرب كانت تسمّي الساعات في اليوم والليلة بأسماء كلّ منها تختصّ بساعة: الفجر، والغداة، والشروق، والضحى، والزوال أو الهاجرة، والعصر، والغروب، والشفق، والعشاء، والعتمة، والسحر...

التفسير

الخطاب بـ﴿قُلۡ﴾ لرسول الله ﷺ، وهو في سياق ما تقدّم نفسه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. والمقصود بضمير المخاطبين في ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أمّة محمّد ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و﴿بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من المشتهيات التي زُيّنت للناس، فبعد أن عرض حال الحياة الدنيا التي هي متاع مؤقّت، والتي يتعلّق بها أهل الشهوات والأهواء، وختم بأنّ الله عنده حسن المآب، شرع في تبيان المسار التكامليّ للإنسان، الموصل إلى حسن المآب، فقال: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾...، والإشارة لما تقدّم وصفه من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والحرث، وكون ما

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص73.

سيذكر خيراً، وإن كان ظاهره التفضيل، والتفضيل فيه تشريك في الخير مع أفضليّة وأرجحيّة، إلّا أنّ القرآن الكريم في كثير من المواضع فاضل بين طرفين لا يشتركان في أصل الصفة، والخطابات العرفيّة الجارية تتسامح في ذلك، وتجري تفضيلاً بين طرفَيْن لا يشتركان في أصل الصفة، فيصحّ التفضيل بين واجد الصفة وفاقدها، وخاصّة عند ادّعاء الصفة أو توهّمها، ولعلّ أوضح مثال قولنا: الله أكبر.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾[1]، ولا خير في الصدقة التي يتبعها أذى، ومثله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾[2]، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[3].

في المقارنة بين المقامَيْن: قابل بين متاع الدنيا المؤقّت، والزائل، والمشوب بالمنغّصات والتبعات المؤلمة، وبين ما أعدّه الله للذين اتّقَوا من جنّات دائمة الحياة والخضرة، والماء الذي لا ينقطع، والثمرة التي لا تنفد؛ ممّا يغنيهم عن المال الذي يُطلب كوسيلة لتحصيل المتع الدنيويّة، والتي تبذل يوم القيامة لمن اتّقى دون منَّة ودون انقطاع، وقابل بين النساء في الدنيا وبين الأزواج المطهّرة هناك التي لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ، وهنّ مطهّرات من كلّ دنس ومن كلّ عيب. ويمكن أن يكون التطهير المقصود هنا أعمّ من الطهارة المادّيّة والروحيّة، طهر الأجساد من الخبث والدنس، وطهر

(1) سورة البقرة، الآية 263.
(2) سورة آل عمران، الآية 150.
(3) سورة النساء، الآية 77.

القلب من الصفات السلبيّة؛ كالكِبَر والعُجُب والأنانيّة والكراهيّة والحقد وغيرها، وهذه الأمور كلّها كانت تعيق كمال الاستمتاع، وتحدّ منه؛ فلذا قال أزواج مطهّرة، فالأزواج تشير إلى الاختصاص بالرابطة، والتطهير إلى الخلوّ من أيّ دنس وخبث.

كما أنّ التنصيص على الخلود، الذي هو دوام الإقامة والاستمرار، للمقابلة مع المتاع المؤقّت الزائل والمنقطع والمنتهي، أو الذي يتمّ الخروج منه ومغادرته. ثمّ أضاف جانباً ترجيحيّاً أبعد بكثير ممّا تقدّم كلّه، وهو الرضوان؛ حيث إنّ العارف يسعى للفوز بالرضوان، ولذّة الوصال لديه أعظم بكثير من لذّة المناكح والمطاعم والمشارب، ولذّة الإحساس برضى المولى أهمّ بكثير من فيوضات النعم التي هي بالنسبة إليهم نتيجة وليست غاية، فمن يدرك حقيقة العبوديّة يجد سعادته بالقرب من معبوده، وهو ما عبّر عنه الراحل الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ بجنّة اللقاء.

بناءً على الثابت من المعاد الجسمانيّ، فهذه النعم التي تمّ تعدادها هي نعم مادّيّة، لكنّها تتناسب مع طبيعة النشأة الخالية من النقائص والأسقام والمنغّصات، وهذا لا ينافي أبداً النعم المعنويّة والروحيّة التي تشكّل مرتبة أرقى وأسمى.

الطريق الأوحد الموصل إلى ذلك كلّه هو التقوى، وهي الخوف من الله -تعالى- الموجب للاتّقاء من غضبه بسلوك طريق الصلاح؛ ولذا قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

بصير يشاهد الأَشياء كلّها، ظاهرها وخافيها، بغير جارحة. والله -تعالى- لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ لأنّه الخالق والموجد، ولا يمكن أن يكون شيء من الموجودات خافياً على موجده وخالقه. فهو -تعالى- محيط بمخلوقاته، عالم بأسرارهم وخفاياهم.

ثمّ فصّل -تعالى- في وصف هؤلاء العباد الذين اتّقوا ربّهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾. بدأ بوصفهم بأنّهم يقرّون لله -تعالى- بالربوبيّة ويؤمنون بما جاء به النبيّ المرسل، وهو يشكّل الأساس العقائديّ الذي يبتني عليه كلّ ما يأتي من صفات أو أفعال، ويطلبون منه العفو والمغفرة، ويخافون من عذابه. ثمّ وصف العباد بصفات عدّة:

1. **الصابرين:** بدأ بهذا الوصف؛ لأنّ المؤمن في طريق ارتقائه نحو كماله، ومسير بلوغه إلى رضوان الله، يحتاج إلى الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر في تحمّل المشاق والبلايا والمصائب والمحن. روي عَنِ الإمام أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا ذَهَبَ الرَّأْسُ ذَهَبَ الْجَسَدُ، كَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ ذَهَبَ الْإِيمَانُ**»[1].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص87.

2. **الصادقين:** الصدق خلاف الكذب، وهو قول الحقيقة ومطابقة الخبر للواقع. وقد وصف المولى -عزّ وجلّ- المؤمنين بهذه الصفة ليؤكّد أنّ الإيمان يأتي نتيجة طلب الحقيقة، ومن ينشد الباطل لا يصل إلى الإيمان. روي عنِ الإمام أبي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أنّه قَالَ: «**يَا فُضَيْلُ، إِنَّ الصَّادِقَ أَوَّلُ مَنْ يُصَدِّقُهُ اللهُ -عزّ وجلّ- يَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَتُصَدِّقُهُ نَفْسُهُ تَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ**»[1].

والصدق يشمل جميع الفضائل، وهو المدخل للطاعات كلّها، كما أنّ الكذب هو مفتاح الرذائل كلّها، ورد عن الْإِمَام الزَّكِيّ الْعَسْكَرِيّ عليه السلام في الحديث أنّه قال: «**جعلت الخبائِثُ في بيتٍ وجُعل مِفْتَاحُهُ الكذبَ**»[2].

3. **القانتين:** ورد هذا الجذر في القرآن الكريم 13 مرّة. وقد تقدّم أنّ القُنُوتُ هو الخُشُوعُ والخضوع والإِقرارُ بالعُبوديّة، والقيامُ بالطاعة التي ليس معها مَعْصِيَةٌ، والطاعة قوام العبوديّة لله، فالقنوت يشمل العبادات والنسك والطاعات كلّها.

4. **المنفقين:** الإنفاق ممّا أفاضه الله -تعالى- على العبد من النعم له دلالات عدّة: فهو كاشف عن الاعتراف والإقرار بأنّ ما بيد العبد من النعم كلّها فهي من الله -تعالى- أفاضها عليه، ومن موجبات الشكر الإنفاق حيث أمر. وهو كاشف عن الإيمان بيوم القيامة ويوم الحساب، وعن معرفة صادقة بأنّ الدنيا فانية،

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص104.
(2) الحلواني، الحسين بن نصر، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، إيران - قم المقدسة، 1408هـ.ق، ط1، ص145.

وأنّها مزرعة الآخرة، والإنفاق في الدنيا ادّخار ليوم القيامة، والزهد في الدنيا زهد بما هو فانٍ، وحرص على ما هو باقٍ. في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «**وَحَقُّ الصَّدَقَةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا ذُخْرُكَ عِنْدَ رَبِّكَ -عزّوجلّ-، وَوَدِيعَتُكَ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْإِشْهَادِ عَلَيْهَا، وكُنْتَ بِمَا تَسْتَوْدِعُهُ سِرّاً أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا تَسْتَوْدِعُهُ عَلَانِيَةً**»[1].

5. **المستغفرين بالأسحار:** الاستغفار هو طلب المغفرة من الذنب أو المعصية، وهو إقرار واعتراف من جهة، وتوبة ورجوع من جهة ثانية، وسعي نحو الإصلاح لما فسد والاستدراك لما فات من جهة ثالثة. ووقت السحر هو الوقت الأصلح الذي يخلو به العبد للقيام بين يدي مولاه، بعيداً عن أعين الناس، وعن مشاغل الحياة، فعندما تهدأ الأصوات وتنام العيون، يتوجّه العبد إلى باريه، ويقوم بين يديه خاشعاً خاضعاً متذلّلاً. ولعلّ أهمّيّة هذا الوقت من هذه الجهة، ولأنّه أبعد عن الرياء وأدلّ على الإخلاص والصدق، ومع ذلك، فإنّ لكلّ وقت وقّته الله -سبحانه- لعبادته خصوصيّةً وسرّاً لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم، وهم الذين يبيّنون ذلك للناس.

ورد في الحديث عن عمر بن يزيد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**من استغفر الله سبعين مرّة في الوتر بعد الركوع، فدام على ذلك سنة، كان من المستغفرين بالأسحار**»[2].

(1) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج2، ص620.
(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص165.

الآية (18)

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

شهد

معناه في اللغة حضر، ويقابله الغياب[1]. والحضور فيه معاينة حسّيّة، قال -تعالى-: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾[2]؛ أي من كان حاضراً في الشهر، مقيماً غير مسافر، فليصم. و(شهد) يتعدّى بدون حرف، فيفيد معنى الحضور والمعاينة، أو ما يسمّى بتحمّل الشهادة؛ وأمّا إذا تعدّى بالباء كقوله: شَهِدَ بكذا شَهادةً؛ أَي أَدّى ما عنده من الشَّهادة، وأدلى بما عاينه وشهده، «وشَهِدَ الشاهِدُ عند الحاكم؛ أَي بيّن ما يعلمه وأَظهره»[3]، فهو شاهِد؛ وشهد عليه إذا نطق بالشهادة التي تدينه وتظهر الحقّ عليه، وشهد له بالنسبة إلى الطرف الآخر المستفيد من الشهادة.

قائماً

القيام على الشيء فيه قدرة وهيمنة وعناية ورعاية وتدبير، وهو -تعالى- القائم بالأمر، القيّوم على الموجودات كلّها؛ لأنّه الخالق لها والموجد، ولأنّه بيده ملكوت كلّ شيء، ولأنّه -تعالى- قادر على كلّ شيء، ولأنّه عليم بكلّ شيء، ولأنّه محيط بكلّ شيء، فهو قيّوم على كلّ شيء، ولا يستغني عن قيمومته شيء، ولا يخرج من دائرة هذه القيمومة شيء. وقد تقدّم ذلك أوّل السورة.

(1) راجع: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص241.
(2) سورة البقرة، الآية 185.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص239.

القسط

القِسْط بالكسر: «والإقساط: العَدْلُ في القسمة والحكم... والقِسْطُ: المِيزانُ»[1]، وهو من المصادر الموصوف بها كعَدْل، يقال: مِيزانٌ قِسْط، ومَوازِينُ قِسْطٌ. «والقسطاس: أقوم الموازين»»[2]، و«في أسماء اللّه -تعالى- الحسنى: المُقْسِطُ: هو العادِل... يقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ إذا عدَل... وتقَسَّطُوا الشيءَ بينهم: تقسَّمُوه على العَدْل والسَّواء... وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ إذا جارَ، فكأَنّ الهمزة في أَقْسَطَ للسَّلْب»»[3]. في الكتاب العزيز: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[4]، فجعل القاسطين في قبال المسلمين.

العزيز

«العِزُّ: خلاف الذُّلِّ... العَزِيزُ: من صفات الله -عزّ وجلّ- وأَسمائه الحسنى؛ قال الزجّاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء، وقال غيره: هو القويّ الغالب كلّ شيء، وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء»[5].

التفسير

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

«قال أَبو عبيدة: معنى شَهِدَ الله، قضى الله أَنّه لا إله إلّا هو،

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص377.
(2) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج5، ص71.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص377.
(4) سورة الجن، الآيتان 14 - 15.
(5) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص374.

وحقيقته: عَلِمَ اللهُ وبَيَّنَ اللهُ؛ لأَنّ الشاهد هو العالم الذي يبيّن ما علمه، فالله قد دلّ على توحيده بجميع ما خَلَق، فبيَّن أَنّه لا يقدر أَحد أَن يُنْشِئَ شيئاً واحداً ممّا أَنشأَ، وشَهِدَتِ الملائكةُ لِما عاينت من عظيم قدرته، وشَهِدَ أُولو العلم بما ثبت عندهم وتَبَيَّنَ من خلقه الذي لا يقدر عليه غيره»[1].

كيف يشهد الله -تعالى- على وحدانيّته؟

إنّ الله -سبحانه وتعالى- بخلقه لهذا العالم، ولهذا الكون المحكوم لنظام واحد مترابط ومتكامل، وبخلق الإنسان على فطرة التوحيد، قد شهد شهادة عمليّة وعلميّة، فقدّم للعقلاء الحقيقة المجسّدة في عالم التكوين، فهي أبلغ شهادة؛ لأنّ الشاهد يقدّم شهادته التي تحكي ما شاهده الشاهد من الحقيقة، ويعبّر عنه بما يشكّل دليلاً، فإحضار الحقيقة إلى مقام الشهادة أبلغ.

كما أنّه -تعالى- عندما يخبر عن قدرته وحكمته وعلمه وعدله ووحدانيّته فهو شهادة أيضاً؛ لأنّ من سواه لا يتمكّن من إظهار شيء ممّا يمكن أن يُدّعى من القدرة والعلم والربوبيّة وغير ذلك من صفات تختصّ به -تعالى-.

وفي الخلاصة: ضعف مَن سواه، وعدم الاستغناء عنه ولا الإغناء، وقدرته التي لا يدانيها قدرة، وعلمه الذي لا يشذّ عنه معلوم، هذا كلّه يشكّل شهادة وحجّة قاطعة بالوحدانيّة.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص239.

شهادة الملائكة

هذه الشهادة يمكن أن تكون قوليّة بالإقرار والاعتراف، ويمكن أن تكون عمليّة بالإذعان والطاعة التامّة. ولا شكّ في أنّ تسبيح الملائكة شهادة بالتوحيد والعظمة، وطاعتهم التامّة ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧﴾ أفصح شهادة.

وقد رجّح السيّد الطباطبائيّ قدس سره كون الشهادة شهادة القول وليس شهادة الفعل، كما رجّح ذلك في شهادة الله[1].

شهادة أولي العلم

أولوا العلم هم أهل العلم الإلهيّ الذين عرفوا الله فشهدوا شهادة علم وشهود، وهذا هو الذي يعطي لشهادتهم قيمة، وقد ورد أنّهم الأنبياء والأئمّة:

روى العياشيّ عن جابر، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، قال أبو جعفر عليه السلام: **«شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إِلَّا هُوَ، فإنّ الله -تبارك وتعالى- يشهد بها لنفسه، وهو كما قال؛ فأمّا قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فإنّه أكرمَ الملائكة بالتسليم لربّهم، وصدّقوا وشهدوا كما شهد لنفسه؛ وأمّا قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، فإنّ أولي العلم الأنبياء**

(1) راجع: العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص115.

والأوصياء، وهم قيام بالقسط، والقسط: العدل في الظاهر، والعدل في الباطن: أمير المؤمنين عليه السلام»[1].

وعن مرزبان القمّيّ، قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ قال: «**هو الإمام**»[2].

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

تقدّم معنى القيام والقسط، وهو حال.

السؤال: ما هو متعلق الحال، وما هو العامل فيها؟ هل هي حال من فاعل شهد، أو أنّها حال من الضمير المشهود له بالتوحيد؟

ذهب السيّد الطباطبائيّ قدس سره إلى الأوّل[3]، وعليه فتكون في مقام بيان حال الشاهد، ولا تدخل في المشهود به؛ وعلى الثاني تكون الشهادة متضمّنة للتوحيد والقيام بالقسط، وهو ممكن، وإن أورد عليه في الميزان إشكالاً[4]، لكنّه قابل للدفع.

لاحظ أنّ بعض الروايات المتقدّمة ظاهرها جعل قائماً حالاً لأُولي العلم، وهو يتوقّف على صحّة ذلك مع الاختلاف في الإفراد والجمع، وهو كما ترى.

(1) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص165 - 166.
(2) المصدر نفسه، ص166.
(3) العلاّمة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير الميزان، مصدر سابق، ج3، ص115.
(4) المصدر نفسه، ص115 - 116.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

كلمة التوحيد هنا بمثابة النتيجة والحكم بعد ذكر الشهادة بها، وهو تقرير وتأكيد، ثمّ ختم بوصفَيْ العزيز والحكيم، فالذين ينكرون التوحيد، ويشركون به، ويعبدون غيره من مخلوقاته لن تغني عنهم آلهتهم المزعومة، ولن يعجزوا الله -تعالى-، ولن ينقص ذلك من عزّته وسلطانه. وهو حكيم بإمهالهم ليتمّ الحجّة على البشر.

الآية (19)

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

اللغة: الدّين: «الجزاء والمُكافأة... لا يجمع بهذا المعنى؛ لأنّه مصدر، كقولك: دان الله العباد يدينهم يوم القيامة؛ أي يجزيهم، وهو ديّان العباد ودِنْتُه بفعلِه دَيْناً: جَزَيته... ويومُ الدِّينِ: يومُ الجزاء. وفي المثل: كما تدين تدان ...والدين: الطاعة، ودانوا لفلان؛ أي أطاعوه... والدين الذي يدين به الناس جمعه الأديان»[1].

«والدين: العادة»[2]، ومثله الديدن.

(1) راجع: الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج8، ص73، ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص169.
(2) راجع: الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج8، ص73.

«الإِسْلامُ والاسْتِسْلامُ: الانقياد. والإِسْلامُ من الشريعة: إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

البغي: الظلم. «والبغي: الفساد، وأصل البغي: الحسد، ثمّ سمّي الظالم بغيّاً؛ لأنّ الحاسد ظالم...قال اللحيانيّ: بَغَى على أخيه بَغْياً حسده... ومنه قوله -تعالى-: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ أي تجاوز الحدّ»؛ وبَغَى الرجلُ علينا بَغْياً: عَدَل عن الحقّ واستطال... وبَغَى عليه يَبْغِي بَغْياً: علا عليه وظلمه... وبَغَى الوالي: ظلم»[2].

التفسير

هذه الآية تحصر الدين بالإسلام، وفيها تأكيد بـ(إنّ)، والألف واللام للجنس، وهو يفيد الاستغراق. ومعناها ليس غير الإسلام بدين عند الله. والمراد من الدين هنا مجموع المعارف العقائديّة والأحكام والتعاليم التي يجب على الناس أن يلتزموا بها عقائديّاً وعمليّاً وسلوكيّاً، فبها يُطاع الله ويُعبد، وبها يُدان العبد ويُجازى.

والمراد من الإسلام هو الدين الذي جاء به رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله، حيث ورد في القرآن الكريم هذا الاسم ستّ مرّات، في هذه الآية وفي مواضع خمسة أخرى، هي:

1. ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[3].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص293.
(2) راجع: الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج1، ص54، ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص78.
(3) سورة آل عمران، الآية 85.

2. ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1].
3. ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾[2].
4. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾[3].
5. ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[4].

وأمّا الفعل والصفة فوردا في أكثر من خمسين موضعاً، حيث وصف أتباع الرسول ﷺ ومن آمن به بأنّهم مسلمون، كما في فعل: أسلموا[5]، وتسلمون[6]، وأمثال ذلك[7].

كيف يكون الدين محصوراً في الإسلام مع أنّ الأنبياء الذين سبقوا النبيّ محمّداً ﷺ جاؤوا بديانات أخرى؛ كالنصرانيّة واليهوديّة، وهو ما ذكره القرآن؟

يمكن توجيه ذلك بنحوَيْن أو ثلاثة:

الأوّل: إنّ المراد بالدين الأصول العقائديّة، وهي لا يمكن أن تتغيّر وتتبدّل، ولا يمكن أن تُنسخ؛ لأنّها حقائق ثابتة؛ كالوحدانيّة، والعدالة، والصفات الأخرى، والمعاد يوم القيامة... بخلاف الشريعة التي تتضمّن أحكاماً قابلة للجعل، والنسخ، والتغيير، لاعتبارات عدّة لا تخرج من دائرة الحكمة والعدالة...، قال -تعالى-:

(1) سورة المائدة، الآية 3.
(2) سورة الصف، الآية 7.
(3) سورة الأنعام، الآية 125.
(4) سورة الزمر، الآية 22.
(5) راجع: سورة المائدة، الآية 44؛ سورة الحج، الآية 34؛ سورة الحجرات، الآية 17.
(6) راجع: سورة النحل، الآية 81.
(7) راجع: سورة لقمان، الآية 22؛ سورة الفتح، الآية 16.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ﴾[1].

فالأديان كلّها متّحدة مع الإسلام عقيدة، وإن اختلفت شرعةً ومنهاجاً. هذا بحسب الأصل. وما بين الأديان الظاهرة من اختلاف في المعتقد فهو تحريف وتبديل بشريّ.

الثاني: أن يكون المراد هو الإسلام بمجموعه العقائديّ والتشريعيّ، ولكن باعتبار أنّه بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقيام الحجّة على الناس، ومنها إخبارات الأنبياء السابقين عليهم السلام، فالأديان السابقة نسخت، ولم يعد من المقبول عند الله التعبّد بها لانتهاء أمدها.

ولعلّ هذا أقرب إلى المراد من قوله -تعالى-:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

الثالث: إنّ المراد من الإسلام معناه اللغويّ، وهو التسليم لأمر الله والاستسلام له، وهو أساس الدين. ولعلّ ما يؤيّده ذكر اختلاف أهل الكتاب فيه، وعدد من الروايات:

ففي الحديث المرفوع إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: **«لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهُ أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ بَعْدِي، الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ**

(1) سورة المائدة ، الآية 48.
(2) سورة آل عمران، الآية 85.

الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ الْأَدَاءُ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَخَذَ دِينَهُ عَنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ عَنْ رَأْيِهِ، أَيُّهَا النَّاسُ دِينَكُمْ، دِينَكُمْ تَمَسَّكُوا بِهِ، لَا يُزِيلُكُمْ أَحَدٌ عَنْهُ؛ لِأَنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْحَسَنَةِ فِي غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ السَّيِّئَةَ فِيهِ تُغْفَرُ، وَالْحَسَنَةَ فِي غَيْرِهِ لَا تُقْبَلُ»[1].

وعن الإمام أبي جعفر عليه السلام في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، قال: «**يعني الدين فيه الإيمان**»[2].

وعنه عليه السلام في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، قال: «**التسليم لعليّ بن أبي طالب عليه السلام بالولاية**»[3].

وَفِي تَفْسِيرِ الْإِمَامِ عليه السلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ أي لا دين مرضيّ عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرّع بالشرع الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم[4].

ومهما يكن، فإنّ أهل الكتاب مأمورون بالإيمان بنبوّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأخذ بكتابه وبشريعته؛ إمّا لأنّ الدين هو هذا، وما عندهم تعرّض للتغيير والتحريف والتلاعب، أو لأنّه نسخ بالدين الجديد، فيجب عليهم أن يسلّموا أمرهم لله بالخضوع والرضى بما جاءهم منه مع أيّ نبيّ مرسل.

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص185 - 186.
(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص166.
(3) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج35، ص341؛ ورواه مع اختلاف يسير: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج2، ص290.
(4) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج65، ص230.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾:

اختلفوا في الدين، فذهبوا مذاهب شتّى. هذا الاختلاف ليس له وجه، وليس له منشأ واقعيّ إلّا البغي والظلم والفساد في الأرض، الذي تواطأوا عليه بينهم، وإلّا فإنّ العلم الذي جاءهم عن طريق الأنبياء والرسل كافٍ لمعرفة الحقّ، والاهتداء إلى دين الحقّ، وصدق النبيّ الخاتم الذي جاءهم بالبيّنات، وبشّرهم به الأنبياء السابقون، لكنّهم أصرّوا على الجحود والكفر.

والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، آتاهم الله الكتاب بأن أنزله على موسى وعيسى، وأمرهم بأن يأخذوه بقوّة، فهو إيتاء غير مباشر.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

كفر الجحود بعد العلم والتبيّن، وهو الذي يستفاد ممّا تقدّم. وآيات الله الدلالات والبيّنات التي تدلّ عليه، ومنها الآيات التي تثبت صدق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فهي أيضاً توصل إلى معرفته.

سَرِيعُ الْحِسابِ

يحاسبهم يوم القيامة على كفرهم وبغيهم، ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾[1]، ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾[2].

(1) سورة المعارج، الآية 6.
(2) سورة النازعات، الآية 46.

وقد وصف الله نفسه بأنّه سريع الحساب في ثمانية مواضع:

1. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[1].
2. ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2].
3. ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[3].
4. ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[4].
5. ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[5].
6. ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[6].
7. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[7].
8. ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[8].

---

(1) سورة البقرة، الآية 202.
(2) سورة آل عمران، الآية 19.
(3) السورة نفسها، الآية 199.
(4) سورة المائدة، الآية 4.
(5) سورةالرعد، الآية 41.
(6) سورة إبراهيم، الآية 51.
(7) سورة النور، الآية 39.
(8) سورة غافر، الآية 17.

كيف هي سرعة الحساب؟ هل سرعة الورود أم سرعة الإنجاز؟

في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: «﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ **لأنّه لا يشغله شأن عن شأن، ولا محاسبة أحد من محاسبة آخر، فإذا حاسب واحداً فهو في تلك الحال محاسب للكلّ، يتمّ حساب الكلّ بتمام حساب واحد، وهو كقوله:** ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1]»[2].

وفي «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل»: «أمّا جملة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ الواردة في الفقرة الأخيرة من الآية، فإنّها تشير إلى سرعة حساب الله -تعالى- لعباده، فإنّه يجازي بالثواب والعقاب نقداً وبدون تأخير، فقد ورد في الحديث الشريف: «**إنّ الله -تعالى- يحاسب الخلائق كلّهم في مقدار لمح البصر**»[3].

وهذا لأنّ علم الله ليس كعلم المخلوقات المحدود، حيث يشغلها موضوع عن موضوع آخر.

مضافاً إلى ذلك، إنّ محاسبة الله لا ينبغي أن تستلزم زماناً؛ لأنّ أعمالنا ذات آثار باقية في جسم الموجودات المحيطة بنا وروحها، وفي الأرض وأمواج الهواء[4].

والرواية التي استشهد بها تشير إلى سرعة الإنجاز لا إلى سرعة الورود.

(1) سورة لقمان، الآية 28.
(2) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص608.
(3) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص51 - 52.
(4) الشيخ الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج2، ص63 - 64.

الآية (20)

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

اللغة: المحاججة: المخاصمة ومواجهة الحجّة بالحجّة، وأصله من الحَجُّ: وهو القصدُ. والحُجَّةُ: الدليل والبرهان عند الخصومة. والفعل حاججته فحججته. واحتججت عليه بكذا[1]. «يقال: حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتّى حَجَجْتُه؛ أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها؛.. والمَحَجَّةُ: الطريق؛ وقيل: جادَّةُ الطريق؛.. والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وجمع الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ»[2].

أسلمت: أَسْلَمَ إِليه الشيءَ: دفعه إليه. و﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾؛ أي جعلت وجهي إليه دون غيره، وأخلصت عبادتي له. و﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، انقدت إليه في أوامره ونواهيه، وسلّمتها له[3].

الأميّين: هل هو نسبة إلى أمّ القرى مكّة، أو نسبة إلى الأمم وهم غير اليهود أو غير أهل الكتاب، فيكون المراد المشركين، أو جمع أمّيّ، وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب؟ قد يكون المراد مشركي مكّة الذين هم بالمعاني الثلاثة كذلك، وكان اليهود يطلقونه على ما يقابلهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[4].

(1) راجع: الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج3، ص11.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص228.
(3) المصدر نفسه، ج12، ص295.
(4) سورة آل عمران، الآية 75.

التفسير

فإن حاجّوك: ضمير الفاعل يعود على الذين أوتوا الكتاب الذين اختلفوا، والذين تحدّثت عنهم الآية السابقة.

والمحاججة هنا -بقرينة السياق- ترتبط بما اختلفوا فيه، وأحقّيّة ما التزموا به من عقائد تخالف الدين الإسلاميّ، ومنه ما يرتبط بنبوّة عيسى عليه السلام.

وآية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1]، لم تنه النبيّ عن محاججتهم ومواجهتهم بالحجج، ولكنّها تشير من خلال الانتقال إلى أمرٍ آخر يؤسّس لمبدأ أساسيّ هو التسليم التامّ لأمر الله -تعالى-، ليعطي الاحتجاج منحىً سليماً، ويكون في سبيل إثبات الحقّ، وليس مجرّد المخاصمة وطلب الغلبة.

أسلوب المحاججة الوارد في القرآن له أكثر من دلالة

1- يرى القرآن أنّ البرهان والدليل العقليّ هما المعيار للقبول والرفض، فالقرآن في كثير من المواضع يسوق الأدلّة ويستنطق العقول.
2- فيه إشارة إلى أنّهم لا دليل لديهم، وأنّهم لا يستندون إلى المنطق.
3- عندما يرفض الكفّار الاحتكام إلى البرهان والدليل يواجههم بالمباهلة وإيكال الأمر إلى الله.

(1) سورة آل عمران، الآية 61.

نماذج من الحوارات الاحتجاجيّة القرآنيّة

1- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

2- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

3- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[3].

التسليم لأمر لله

نسب التسليم وهو الطاعة والانقياد إلى الوجه؛ باعتباره يحكي عن واقع البدن والنفس معاً، فهو ما يستقبل به الأشياء التي يتوجّه نحوها، وهو جامع للحواس، وهو الجامع للملامح الدالّة على الشخص والتي يُعرف بها، وهو الذي تظهر عليه ملامح التأثّر النفسيّ والعاطفيّ والانفعالات؛ كالرضى والرفض والتعجّب والاستفهام والغضب والحزن والفرح. والتسليم التامّ يتناول هذه الأبعاد كلّها.

(1) سورة البقرة، الآية 258.
(2) سورة آل عمران، الآية 61.
(3) سورة الشعراء، الآية 30 - 32.

فإذا أسلم الرسول وجهه لله، فاتّباعه يقتضي أيضاً التسليم، وإلّا فلا يتحقّق الاتّباع؛ فلذا قال: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾؛ وعليه، فما جاء من عند الله -تعالى- فهو مقبول متّبع مُطاع.

ولمّا كان التسليم لأمر الله هو المبدأ والمنطلق للحوار والمحاججة والقبول والرفض؛ فلذا أمره بأن يتوجّه إليهم بالسؤال:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾:

وهذا التسليم هو مبدأ الهداية.

﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ هو قريب من قوله -تعالى-: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1].

وهذا يشير إلى أمور عدّة:

1- ليس من فائدةٍ في محاججة المعاندين الذين لا يسلّمون أمرهم لله، بل يمارون مراءً.
2- إنّ هؤلاء المعاندين لن يُخفى أمرهم على الله، وحسابهم عليه، فمرجعهم إليه.
3- ليس على الرسول إلّا البلاغ الذي فيه الحجّة عليهم.

(1) سورة البقرة، الآية 137.

الآيتان (21-22)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

اللغة: القِسْطِ: العدل، كما تقدّم.

فَبَشِّرْهُم: «البِشْرُ: الطَّلاقَةُ، وقد بَشَرَه بالأَمر يَبْشُرُه، بالضمّ، بَشْراً وبُشُوراً وبِشْراً، وبَشَرَهُ به بَشْراً... وبَشَّرَهُ وأَبْشَرَهُ فَبَشِرَ به، وبَشَرَ يَبْشُرُ بَشْراً وبُشُوراً»[1].

والبِشارَةُ المُطْلَقَةُ لا تكون إلَّا بالخير، وإنّما تكون بالشرّ إذا كانت مقيّدة؛ كقوله -تعالى-: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]؛ قال ابن سيده: «والتَّبْشِيرُ يكون بالخير والشرّ؛ كقوله -تعالى-: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ وقد يكون هذا على قولهم: تحيَّتك الضَّرْبُ وعتابك السَّيْفُ، والاسم البُشْرى»[3].

«والبشارة: ما بشّرت به. والبشير: المبشِّر بخير أو شرّ. والبشارة: حقّ ما يُعطى على ذلك... والبشارة: تباشر القوم بأمر»[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص61.
(2) سورة آل عمران، الآية 21؛ سورة التوبة، الآية 34؛ سورة الإنشقاق، الآية 24.
(3) ابن سيده، عليّ بن إسماعيل، المخصّص، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربيّ، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط، ج4، ص134.
(4) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج6، ص259.

الحبط: «الحَبَطُ وجع يأْخذ البعير في بطْنه من كَلأٍ يَسْتَوْبِلُه»[1]، ويقال: «حَبِط الجرحُ حَبَطاً، بالتحريك؛ أَي عَرِب ونُكس»[2]. «وحبِط عمله: فسد، وأحبطه صاحبه أفسده، والله محبط عمل من أشرك»[3].

التفسير

الآية وإن سيقت لبيان قاعدة كلّيّة قابلة للتطبيق على كلّ قوم، وفي أيّ زمان ومكان عند وجود الموضوع بالصفة المذكورة، إلّا أنّ سياقها، بعد ذكر حال مَن تقدّم، يوحي بالتعريض باليهود من أهل الكتاب الذين هم على هذه الصفة، فأغنى ذلك عن الإخبار الصريح عن قيامهم بما وصفت هذه الآية، وإن صرّح بقيامهم بذلك في مكان آخر من الكتاب.

والأوصاف الثلاثة التي ساقتها الآية في موضوعها، هي:

1- **الكفر بآيات الله:** وهي أعمّ من الآيات البيّنات التي حواها القرآن الحكيم، والآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة الدالّة على عظمة الخالق وسَعة علمه وسلطانه وقدرته وحكمته، والآيات المعجزات الدالّة على صدق الرسول المبعوث وما معه من الكتاب والحكمة. ولا شكّ في أنّ الكفر والجحود بعد وضوح البيّنات وقيام الحجج من أبشع أنواع الظلم، بل هما المدخل الحصريّ لكلّ ظلم.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص270.
(2) المصدر نفسه، ص269.
(3) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج3، ص174.

2- **قتل النبيّين:** بعد الكفر والجحود فيه ترقٍّ عمليّ بالمبادرة إلى منع النبيّين من القيام بدورهم في هداية الناس وتبيان أحكام الله، وقتل النبيّين للتخلّص من دعوتهم، والحيلولة بينهم وبين الناس، لكي لا يؤدّوا رسالتهم، فهو من متفرّعات الكفر بالآيات، ولكنّه تصعيد في السلوك العمليّ.

وتقييد قتل الأنبياء بأنّه بغير حقّ ليس من باب الاحتراز؛ لعدم إمكان قتل الأنبياء بحقّ، فهم معصومون مطهّرون، بل هو توصيف لهذا القتل بأنّه بغير حقّ، وتوكيد لكي لا يتوهّم ذلك.

3- **قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس:** وفيه جرم مضاعف؛ لكونه قتلاً للنفس المحترمة، الذي هو من الكبائر من جهة، ولكونه ناتجاً عن إرادة خبيثة لمواجهة العدل ومعاداة من يأمر به، فهو وصف في سياق التعليل، فكأنّه أراد أن يقول إنّهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس؛ لأنّهم يأمرون بالقسط، فذنبهم أنّهم يريدون سيادة العدل، ويأمرون بالعدل لا أكثر. وهي ليست عداوة شخصيّة، بل عداوة للمبدأ؛ ولذا قال: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، يعني كلّ من كان كذلك من الناس بقطع النظر عن أصله ونسبه.

هؤلاء الذين جرى وصفهم، وإن أمكن أن يكفروا وينالوا من الرسل ويقطعوا شجرة العدل بقتل من يدعو لها، إلّا أنّهم ينتظرهم عذاب أليم. والبشارة وإن كانت في الأصل هي لما يوجب البِشر والفرح، إلّا أنّها يمكن أن تستعمل لغيره مع القرينة، كما هو الأمر هنا، والنكتة في استعمال البشارة هنا مع أنّ المقام للتهديد، أنّهم

يقومون بذلك متوهّمين أنّهم ينتصرون ويحقّقون الظفر والأماني، ولكنّهم بكفرهم لا ينتظرون ما ينتظرهم من العذاب، فجعل ذلك بشارتهم على عكس ما يعتقدون وما يتوقّعونه، كما يقال في التهديد: تحيّتك الضَّرْبُ وعتابك السَّيْفُ.

هل يمكن تطبيق الآية على يهود عصر النزول ممّن كفر بالنبيّ وبما جاء به، مع أنّ هؤلاء لم يصدر عنهم قتل للأنبياء؟

لعلّ ذلك ممكنٌ بقرينة مخاطبة القرآن لهم بذلك في موارد أخرى، مثل قوله -تعالى-:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، فنسب إليهم فعل القتل مع أنّهم متأخّرون زماناً؛ لأنّهم رضوا بذلك، أو لأنّهم مستعدّون لفعل الشيء نفسه ويتمنّونه، ولو أمكنهم فعله لفعلوه، وإن لم يتمكّنوا من قتل النبيّ، فقد سعَوا لقتل الذين يأمرون بالقسط.

والعذاب الأليم هنا هو عذاب يوم القيامة الذي يكفرون به، وهو عذاب أليم لا يقاس به ألم العذاب الدنيويّ مهما بلغت شدّته، وقد يكون المراد الأعمّ من عذاب الدنيا والآخرة، فيكون فيه إخبار عن انكسار شوكتهم، وسقوط عزّتهم، وتعرّضهم للهزيمة والهوان والتقتيل في الدنيا قبل يوم القيامة.

(1) سورة البقرة، الآية 91.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾:

حبط الأعمال بطلانها وفسادها، وسقوط التأثير المقصود، فإذا كان المراد من العمل العبادة والطاعة والحصول على درجات القرب، فحبط العمل يفقده هذه القابليّة، وإن كان المقصود الثواب، فالحبط يبطل هذه النتيجة، والخلاصة فإنّ حبط العمل هو بطلان الأثر المرجوّ منه، وتغيير وجهة العمل.

ولا يقتصر الحبط على بطلان الأثر الأخرويّ، بل والأثر الدنيويّ -أيضاً- كما هو واضح من الآية.

السؤال هنا:

إنّ هؤلاء الذين كفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، هل كان لعملهم من قيمة إيجابيّة، ولو بحسب المقتضي، ليصحّ حبطه وإبطاله؛ إذ هم عملهم فاسد من الأصل؟

ربّما كان لهم عمل يعتقدون صحّته؛ باعتبار استناده إلى شيء من الشرائع السابقة، وهذا حبطه واضح، وربّما كان عملهم يُراد له أثر دنيويّ من امتياز ومكانة ومنزلة وغير ذلك من جوانب القدرة، فيحبطه الله بأن يسقطه عن التأثير، ومثله قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾[1].

(1) سورة محمّد، الآيات7 - 9.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

يستعينون بهم في الدنيا فينتصروا. ولا في الآخرة فيدفعوا عنهم العذاب.

وقد أورد العلّامة الطباطبائيّ قدس سره في الميزان كلاماً مطوّلاً في الحبط على هامش تفسير الآية، فصّل فيه الوجوه والأقوال. وخلاصة النتيجة التي توصّل إليها، قوله:

«فمحصّل الآية كسائر آيات الحبط، هو أنّ الكفر والارتداد يوجبان بطلان العمل عن أن يؤثّر في سعادة الحياة، كما أنّ الإيمان يوجب حياة في الأعمال تؤثّر بها أثرها في السعادة، فإن آمن الإنسان بعد الكفر حييت أعماله في تأثير السعادة بعد كونها محبطة باطلة، وإن ارتدّ بعد الإيمان ماتت أعماله جميعاً وحبطت، فلا تأثير لها في سعادة دنيويّة ولا أخرويّة، لكن يرجى له ذلك إن هو لم يمت على الردّة، وإن مات على الردّة حُتّم له الحبط، وكُتب عليه الشقاء؛ ومن هنا يظهر بطلان النزاع في بقاء أعمال المرتدّ إلى حين الموت، والحبط عنده أو عدمه»[1].

«والحقّ، **أوّلاً**: إنّ الإنسان يلحقه الثواب والعقاب من حيث الاستحقاق بمجرّد صدور الفعل الموجب له، لكنّه قابل للتحوّل والتغيّر بعدُ، وإنّما يثبت من غير زوال بالموت، كما ذكرناه.

وثانياً: إنّ حبط الأعمال بكفر ونحوه، نظير استحقاق الأجر، يتحقّق عند صدور المعصية، ويتحتّم عند الموت.

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص169.

وثالثاً: إنّ الحبط كما يتعلّق بالأعمال الأخرويّة، كذلك يتعلّق بالأعمال الدنيويّة.

ورابعاً: إنّ التحابط بين الأعمال باطل، بخلاف التكفير ونحوه»[1].

الآيات (23-25)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

اللغة: النَّصِيبُ: الحَظُّ من كلِّ شيءٍ. وقوله -عزّ وجلّ-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ﴾[2]، النَّصِيب هنا: ما أَخْبَرَ اللهُ من جَزائهم؛.. وأَنْصَبَه: جَعَلَ له نَصِيباً. وهم يَتَناصَبُونَه؛ أي يَقْتَسمونه[3].

الدعاء

النداء، والطلب، واستدعاء الفعل. ودَعَوْت فلاناً؛ أي ناديته واسْتَدْعَيْته[4].

---

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص172.
(2) سورة الأعراف، الآية 37.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص761.
(4) المصدر نفسه، ج14، ص258.

الحُكْمُ

القَضاء؛.. مصدر قولك حَكَمَ بينهم يَحْكُمُ؛ أي قضى، وحَكَمَ له وحكم عليه[1].

التولّي

يكون بمعنى الإعراض وبمعنى الاتّباع، قال -تعالى-: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2]؛ أي إن تعرضوا عن الإسلام[3]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾[4]؛ أي تَنْصُروهم أو تتحبّبوا إليهم[5]. وقد يميّز بين المعنيَيْن بالتعدية: تولاّه وتولّى عنه، والمراد هنا الإعراض بلا شكّ لقرائن عدّة.

الإعراض

كالتولّي، أَعْرَضَ عن الشيء إذا أشاح بوجهه عنه وولّاه ظهره[6]، وأعرضت بوجهي عنه؛ أي: صددت وحدت[7].

غرّهم

يقال: غَرَّ فلان فلاناً معناه نَقَصه، من الغِرار وهو النقصان[8].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص141.
(2) سورة محمّد، الآية 38.
(3) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج1، ص460.
(4) سورة الممتحنة، الآية 9.
(5) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج9، ص538؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص408.
(6) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص501.
(7) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج1، ص272.
(8) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص17.

والغرار: نقصان لبن الناقة؛.. ولا غرار في الصلاة؛ أي لا نقصان في ركوعها وسجودها[1]. وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2]، الغرور بالفتح الشيطان؛ لأنّه يغرّ الناس، وكلّ من غَرّ فهو غرور[3].

والغرور

الإطماع فيما لا يصحّ، غرّه يغرّه غروراً فهو مغرور، والغارّ الغافل؛ لأنّه كالمغترّ، والغرّارة الدنيا تغرّ أهلها، والغِرّ الغمر الذي لم يجرّب الأمور، ومصدره الغِرارة؛ لأنّه من شأنه أن يقبل الغرور، والغرر الخطر الذي يُقدِم فيه على ما لا ينبغي[4].

الافتراء

العظيم من الكذب؛... والفرية: الكذبة العظيمة التي تتعجّب منها[5]. وفرى فلان كذباً يفريه فرية إذا اختلقه، وأصل الفري الشقّ[6]. قوله -تعالى-: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[7]، والأصل في الافتراء القطع، من فريت الأديم أفريه، ثمّ استُعير للكذب مع العمد[8].

(1) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج4، ص347.
(2) سورة لقمان، الآية 33؛ سورة فاطر، الآية 5.
(3) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص421.
(4) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص426.
(5) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج1، ص329.
(6) راجع: الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص427.
(7) سورة الأنعام، الآية 21.
(8) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج1، ص329.

أسباب النزول

قال: «اختلفوا في سبب نزولها. فقال السُّدِّيّ: دعا النبيّ ﷺ اليهودَ إلى الإسلام، فقال له النعمان بن أوفي: هلمّ، يا محمّد، نخاصمك إلى الأحبار، فقال رسول الله ﷺ: بل إلى كتاب الله، فقال: بل إلى الأحبار، فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

وروى سعيد بن جبير، وعكرمة، عن ابن عبّاس قال: دخل رسول الله ﷺ [بيت] المِدْرَاسِ على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال له نُعَيْم بن عمرو، والحارث ابن زيد: على أيّ دين أنت يا محمّد؟ فقال ﷺ: **على ملّة إبراهيم**، قالا: إنّ إبراهيم كان يهوديّاً، فقال رسول الله ﷺ: «**فهلمّوا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه**»، فأنزل الله -تعالى- هذه الآية.

وقال الكلبيّ: «نزلت في قصّة اللذَين زنيا من خيبر، وسؤال اليهود النبيّ ﷺ عن حدّ الزانيَين»[1].

التفسير

الاستفهام تقريريّ. وتعدية الرؤية بـ(إلى) فيه تضمين معنى النظر؛ أي: ألم تنظر إلى.

والآية في مقام تبيان حلقة من حلقات البغي عند اليهود.

(1) الواحديّ النيسابوريّ، علي بن أحمد، أسباب نزول الآيات، مؤسّسة الحلبيّ وشركاه للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة، 1388هـ.ق - 1968م، لا. ط، ص63.

وصفهم بأنّهم أوتوا نصيباً من الكتاب في هذه الآية، وفي موطنَيْن من سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾[1]،

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾[2].

«من» هل هي للتبعيض أم للبيان؟ وجهان.

و«الكتاب» هل هو جنس الكتاب أم الكتاب أم خصوص التوراة؟ فإذا كان المراد التوراة فيتعيّن التبعيض للإشارة إلى أنّ ما في أيديهم من التوراة ليس الكتاب كلّه، وإنّما بعضه الذي بقي بعد الإخفاء والتحريف.

ما الكتاب الذي دُعوا إليه، هل هو التوراة أم القرآن؟

قال في مجمع البيان: «﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، اختلف فيه، فقيل معناه: التوراة، عن ابن عبّاس، دعا إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجّة لهم لِمَا فيه من الدلالات على نبوّة محمّد ﷺ وصدقه، وإنّما قال أُعطوا نصيباً من الكتاب؛ لأنّهم كانوا يعلمون بعض ما فيه. وقيل معناه: القرآن، عن الحسن

(1) سورة النساء، الآية 44.
(2) السورة نفسها، الآية 51.

وقتادة، دعوا إلى القرآن؛ لأنّ ما فيه موافق لِمَا في التوراة من أصول الديانة وأركان الشريعة، وفي الصفة التي تقدّمت البشارة بها.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يحتمل ثلاثة أشياء:

أحدها: إنّ معناه ليحكم بينهم في نبوّة محمّد ﷺ، عن أبي مسلم وجماعة.

والثاني: إنّ معناه ليحكم بينهم في أمر إبراهيم، وأنّ دينه الإسلام.

والثالث: إنّ معناه ليحكم بينهم في أمر الرجم.

فَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ رَجُلًا وَامْرَأَةً مِنْ أَهْلِ خَيْبَرَ زَنَيَا، وَكَانَا مِنْ ذَوِي شَرَفٍ فِيهِمْ، وَكَانَ فِي كِتَابِهِمُ الرَّجْمُ، فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا لِشَرَفِهِمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُخْصَةٌ فِي أَمْرِهِمَا، فَرَفَعُوا أَمْرَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا، بِالرَّجْمِ، فَقَالَ لَهُ النُّعْمَانُ بْنُ أَوْفَى وَبَحْرِيُّ بْنُ عَمْرٍو [نَجْرُ بْنُ عَمْرٍو]: جُرْتَ عَلَيْهِمَا، يَا محمّد، لَيْسَ عَلَيْهِمَا الرَّجْمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **بَيْنِي وَبَيْنَكُمَا التَّوْرَاةُ**، قَالُوا: قَدْ أَنْصَفْتَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَعْلَمُكُمْ بِالتَّوْرَاةِ، قَالَ رَجُلٌ أَعْوَرُ يَسْكُنُ فَدَكَ يُقَالُ لَهُ ابْنُ صُورِيَا، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَكَانَ جَبْرَئِيلُ قَدْ وَصَفَهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَنْتَ ابْنُ صُورِيَا**، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **أَنْتَ أَعْلَمُ الْيَهُودِ**، قَالَ: كَذَلِكَ يَزْعُمُونَ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَيْءٍ مِنَ التَّوْرَاةِ فِيهَا الرَّجْمُ مَكْتُوبٌ، فَقَالَ لَهُ: **اقْرَأْ**، فَلَمَّا أَتَى عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهَا وَقَرَأَ مَا بَعْدَهَا، فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ جَاوَزَهَا، وَقَامَ إِلَى ابْنِ صُورِيَا وَرَفَعَ كَفَّهُ عَنْهَا، وَقَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَعَلَى

الْيَهُودِ بِأَنَّ الْمُحْصِنَ وَالْمُحْصِنَةَ إِذَا زَنَيَا وَقَامَتْ عَلَيْهِمَا الْبَيِّنَةُ رُجِمَا، وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ حُبْلَى انْتُظِرَ بِهَا حتّى تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ بِالْيَهُودِيَّيْنِ فَرُجِمَا، فَغَضِبَ الْيَهُودُ لِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ -تعالى- هَذِهِ الْآيَةَ»[1].

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

التولّي والإعراض عن قبول الحقّ الواضح. وتولّي فريق منهم فيه إشارة إلى وجود مستجيب وموافق على الاحتكام إلى الكتاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾:

إشارة إلى ما تقدّم من إعراضهم وتولّيهم وإبائهم الاحتكام إلى كتاب الله، «فالله -تعالى- بيَّن العلّة في إعراضهم عنه مع معرفتهم به والسبب الذي جرّأهم على الجحد والإنكار ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾؛ أي لن تصيبنا ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وفيه قولان: أحدهما: إنّها الأيّام التي عبدوا فيها العجل، وهي أربعون يوماً عن الربيع وقتادة والحسن، إلّا أنّ الحسن قال سبعة أيّام، والثاني: إنّهم أرادوا أيّاماً منقطعة عن الجبائيّ ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾؛ أي أطمعهم في غير مطمع ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي افتراءهم وكذبهم. واختلفوا في الافتراء الذي غرّهم على قولين: أحدهما: قولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ عن قتادة، والآخر: قولهم ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ عن مجاهد»[2].

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص265.
(2) المصدر نفسه، ص266.

هذه الآية، وقولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ فيهما إشارة إلى إيمانهم بالآخرة، على خلاف ما يستفيده بعضٌ نتيجة خلوّ التوراة الرائجة من ذكر للآخرة، وربّما كان كلام اليهود مبنيّاً على فرض، وليس على اعتقاد.

الآيتان (26-27)

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

اللغة

اللهم: «اللَّهُمَ: معناه: يا اللّه، وكأنّ الميم المشدَّدة المفتوحة في آخر الكلمة عوض عن حرف النداء، فإنّهما لا يجتمعان. وشذّ قول الراجز: (أقول: يا اللهمّ يا اللهمّا)»[1].

«اللَّهُمَّ: منادى مفرد علم بياء النداء المحذوفة المعوَّض عنها بالميم المشدّد»[2].

(1) البلاغيّ النجفيّ، محمّد جواد، آلاء الرحمان في تفسير القرآن، لا.ن، لا.م، 1352هـ.ق - 1933م، لا.ط، ج1، ص269.

(2) الدرويش، محي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير؛ دار اليمامة، دمشق - بيروت، 1412هـ.ق - 1992م، ط3، ج1، ص486.

«اللَّهُمَّ: منادى مفرد علم، والميم المشدَّدة عوض عن (يا)، لا محلَّ له»[1].

الملك: «المُلْكُ بالضمّ: المملكة، وقيل: السلطنة، وهي الاستيلاء مع ضبط وتمكّن من التصرّف»[2]. «وهو يُذكّر ويُؤنّث كالسُّلْطان. ومُلْكُ الله -تعالى- ومَلَكُوته: سلطانه وعظمته... المَلْكُ والمُلْكُ والمِلْك احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به، مَلَكه يَمْلِكه مَلْكاً ومِلْكاً ومُلْكاً وتَمَلُّكاً؛ الأَخيرة عن اللحيانيّ، لم يحكها غيره»[3].

فرّق صاحب الميزان بين المِلك بالكسر والمُلك بالضمّ؛ فحمل الأوّل على ملك التصرّف بالأشياء، والثاني على ملك الأمم، حيث يملك التصرّف بالرعايا وما يملكونه[4].

تُولِجُ: «الوُلُوجُ الدخولُ»[5]. «وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[6]؛ أي يدخل فيها، من الولوج في الشيء: الدخول فيه. يقال ولج يلج ولوجاً؛ أي دخل...، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[7]؛ أي يدخل هذا في هذا، فما زاد في أحدهما نقص في الآخر؛ كنقصان نهار الشتاء، وزيادة ليله، وزيادة نهار الصيف، ونقصان ليله»[8].

---

(1) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، مصدر سابق، ج1، ص130.
(2) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج5، ص290.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج10، ص492.
(4) راجع: العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص128 - 130.
(5) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج6، ص182.
(6) سورة سبأ، الآية 2؛ سورة الحديد، الآية 4.
(7) سورة الحج، الآية 61؛ سورة لقمان، الآية 29؛ سورة الحديد، الآية 6.
(8) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج2، ص335.

فضل الآية

في مهج الدعوات: عن أسماء بنت زيد، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به فأجاب** ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ﴾ إلى ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾»[1].

وفي مجمع البيان: عن الإمام جعفر بن محمّد عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**لمّا أراد الله أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي و**﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ **و**﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ -**إلى قوله-** بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾**، تعلّقنَ بالعرش، وليس بينهنّ وبين الله حجاب، وقلنَ: يا ربّ، تُهبطنا إلى دار الذنوب، وإلى من يعصيك، ونحن معلّقات بالطهور وبالعرش؟ فقال: وعزّتي وجلالي، ما من عبدٍ قرأكُنّ في دُبرِ كلّ صلاة مكتوبة إلّا أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه، وإلّا نظرت إليه بعيني المكنونة في كلّ يوم سبعين نظرة، وإلّا قضيت له في كلّ يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، وإلّا أعذته من كلّ عدوّ ونصرته عليه، ولا يمنعه دخول الجنّة إلّا أن يموت. وقال معاذ بن جبل: احتبست عن رسول الله يوماً لم أصلِّ معه الجمعة، فقال: يا معاذ! ما يمنعك عن صلاة الجمعة؟ قلت: يا رسول الله، كان ليوحنّا اليهوديّ عليَّ أوقية من تبر، وكان على بابي يرصدني فأشفقت أن يحبسني دونك، قال: أتحبّ، يا معاذ، أن يقضي الله دَيْنك؟ قلت: نعم، يا رسول الله، قال:** ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ -**إلى قوله-** بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾،

(1) ابن طاووس، السيّد عليّ بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، كتابخانه سنائى، لا. م، لا. ت، لا. ط، ص317.

يا رحمان الدنيا ورحيمهما، تعطي منهما ما تشاء، وتمنع منهما ما تشاء، اقضِ عنّي ديني، فإنْ كان عليك ملء الأرض ذهباً لأدّاه الله عنك»[1].

سبب النزول

في أسباب النزول للواحديّ والكشّاف، وحكاه في مجمع البيان في تفسير القرآن:

«قيل: لمّا فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة ووعد أُمّته مُلك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات! من أين لمحمّد مُلك فارس والروم؟ ألم يكفِه المدينة ومكّة حتّى طمع في الروم وفارس؟ فنزلت هذه الآية.

وقيل: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خطّ الخندق عام الأحزاب، وقطع لكلّ عشرة أربعين ذراعاً، فاحتجّ المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسيّ وكان رجلاً قويّاً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقال الأنصار: سلمان منّا، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**سلمان منّا أهل البيت**». قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة ونعمان بن مقرن المزنيّ وستّة من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحفرنا حتّى إذا كنّا بجبّ ذي ناب، أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقّت علينا، فقلنا: يا سلمان، إرقَ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره خبر هذه الصخرة، فإمّا أن نعدل عنها فإنّ المعدل قريب، وإمّا أن يأمرنا فيه بأمره، فإنّا

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص267.

لا نحبّ أن نجاوز خطّه، قال: فرقي سلمان إلى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبّة تركيّة، فقال: يا رسول الله، خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتّى ما يحتكّ فيها قليل ولا كثير، فمُرنا فيها بأمرك، فإنّا لا نحبّ أن نجاوز خطّك، قال: فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق والتسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من يد سلمان فضربها به ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، حتّى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، وكبَّر المسلمون. ثمّ ضربها رسول الله ﷺ الثانية فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتّى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح، وكبَّر المسلمون. ثمّ ضربها رسول الله ﷺ الثالثة فكسرها، فبرق منها برق أضاء بها ما بين لابتيها حتّى لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله تكبيرة فتح وكبَّر المسلمون، وأخذ بيد سلمان ورقي، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيت منك قطّ! فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم وقال: **رأيتم ما يقول سلمان**؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: ضربتُ ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبرائيل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربتُ ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربتُ ضربتي الثالثة، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل أنّ أمّتي ظاهرة عليها

فأبشروا، فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صدق، وعدنا النصر بعد الحصر.

فقال المنافقون: ألاَ تعجبون، يمنيّكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنّه يُبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنّها تفتح لكم، وأنتم إنّما تحفرون الخندق من الفرق، ولا تستطيعون أن تبرزوا، فنزل القرآن: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾[1].

وأنزل الله في هذه القصّة: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ﴾ الآية. رواه الثعلبيّ بإسناده عن عمرو بن عوف[2].

التفسير

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾:

الخطاب للنبيّ ﷺ. وصيغة المحكيّ بالقول ثناء وإقرار بالملك والسلطان المطلق، واعتراف بالعجز والفقر والفاقة، وفيه تعريض بمن يزعمون أنّ لهم السلطان والحظوة، وينفون إمكانيّة تحقّق ما وعد به الرسول ﷺ قومه من إذعان الروم وفارس لهم ودخولهم في دولة الإسلام.

(1) سورة الأحزاب، الآية 12.

(2) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص269؛ وراجع: الواحديّ، أسباب نزول الآيات، مصدر سابق، ص63؛ الزمخشريّ، محمود، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة ومطبعة الحلبيّ، مصر، 1385هـ.ق - 1966م، لا. ط، ج1، ص422.

﴿مَٰلِكِ ٱلۡمُلۡكِ﴾:

ينبغي التعرّض لأمور عدّة:

الأوّل: إنّ الملك الحقيقيّ لله وحده؛ لأنّه الخالق والموجد، قال -تعالى-: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾[1]. ومن الطبيعيّ أن يستلزم الإيجادُ تمامَ الهيمنة والسلطنة، على خلاف الملك المكتسب مهما كان منشؤه وكيفيّة الوصول إليه، قال -تعالى-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾[2]، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾[3].

الثاني: إنّ الملك بالكسر أو بالضمّ منه حقيقيّ ثابت بالأصالة، لا يمكن نزعه عن المالك، ومنه اعتباريّ ناشئ من الاعتبار الشرعيّ أو العرفيّ، بحيث يكون التصرّف صحيحاً في نظر المعتبر؛ كالملك الحاصل من الشراء الصحيح أو الميراث أو الحيازة أو الإنتاج أو الهبة أو غير ذلك من أسباب التملّك. وهذا النوع من الملك غير حقيقيّ، بل اعتباريّ؛ لأنّه قابل للنزع، وهو محدود بحدود ضيّقة من التصرّفات المقدورة، فمن ملك رقبة أرض يمكنه التصرّف فيها بالزراعة والبناء وأنواع التصرّفات المعروفة، ولكنّه لا يقدر على تغيير ماهيّتها وطيّها ونقلها وما شابه من التصرّفات التي يختصّ بها المالك الأصليّ الحقيقيّ الخالق والموجد لها.

(1) سورة البقرة، الآية 284؛ سورة النساء، الآية 131؛ سورة سبأ، الآية 1؛ سورة الحشر، الآية 1؛ وغيرها.
(2) سورة الأنعام، الآية 73.
(3) سورة فاطر، الآية 13.

الثالث: إنّ الملك هنا في هذا المقطع مطلق، يشمل كلّ شيء في دائرة الوجود، وبكلّ نحو من أنحاء التصرّف، فهو بيده الملك كلّ الملك، ولا يخرج من دائرة ملكه وملكوته وسلطانه شيء، وهذا هو شأن المالك الحقيقيّ.

جولة في الاستعمالات القرآنيّة للملك

1. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[1].
2. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].
3. ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].
4. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[4].
5. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية 251.
(2) السورة نفسها، الآية 258.
(3) سورة يوسف، الآية 101.
(4) سورة الإسراء، الآية 111.
(5) سورة طه، الآية 114.

6. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1].
7. ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[2].
8. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[3].
9. ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[4].
10. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].
11. ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[6].

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾:

الإيتاء هو الإعطاء[7]، فكلّ ملك لغيره فهو بتمكين وتمليك منه، ولكن هل المقصود بالإيتاء الملك الفعليّ الذي يمارسه الملوك والمتربّعون على عروش السلطة في كلّ مكان وكلّ زمان، بقطع النظر عن شرعيّته وصحّة الطريقة الموصلة إليه، أو المقصود

(1) سورة الفرقان، الآية 2.
(2) سورة فاطر، الآية 13.
(3) سورة الزمر، الآية 6.
(4) سورة غافر، الآية 29.
(5) سورة التغابن، الآية 1.
(6) سورة الملك، الآية 1.
(7) راجع: الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج8، ص146.

بالإيتاء الإذن التشريعيّ، فيختصّ بالملك المشروع والمعطى دون المأخوذ ظلماً وتعدّياً؟ على الرغم من أنّ الأخذ غير المشروع أيضاً لا يخرج عن دائرة سلطانه -تعالى-، ولا يخرج عن دائرة قدرته من الناحية التكوينيّة، لكنّه ليس بالإعطاء، وإنّما بالتعدّي والتجاوز.

يمكن إرادة الأوّل، بجعل الإذن التكوينيّ وإعطاء القدرة عل الهيمنة والتسلّط والفرصة والإمهال مع وجود القدرة على المنع -بجعل ذلك كلّه- بمنزلة الفعل والإيتاء لما حصل نتيجة ذلك، وقد عبّر القرآن عنه بالإيتاء، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾[1].

ولكنّ الرواية تفيد الثاني، فقد روى الكلينيّ في روضة الكافي بإسناده: «عن إبراهيم بن أبي بكر بن أبي سمّاك عن داود بن فرقد عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، أليس قد آتى الله -عزّ وجلّ- بنى أميّة الملك؟ قال: **ليس حيث تذهب، إنّ الله -عزّوجلّ- آتانا الملك وأخذته بنو أميّة، بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر، فليس هو للذي أخذه**»[2].

أمّا لماذا يسمح المولى -عزّ وجلّ- للظالمين بتجاوز الحدّ، والتسلّط على رقاب الناس، وممارسة طغيانهم وظلمهم، مع قدرته على منعهم، والحيلولة دون ذلك؟

إنّ المولى -عزّ وجلّ- شاءت حكمته أن يبتليهم ويمتحنهم بمنحهم مساحة من الحرّيّة التكوينيّة، وبتمكينهم من إعمال الإرادة

(1) سورة البقرة، الآية 258.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص266.

فيما اختاروه، وأن يمتحن الناس ويختبرهم بذلك من جهة قيامهم بما أمرهم به من جهادهم، ونهاهم عنه من طاعتهم وممالأتهم ومناصرتهم.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾:

فهو مقابل الإيتاء، وهو يشير إلى تماميّة السلطة والقيّوميّة على كلّ شيء، وهنا أيضاً يُطرح السؤال: هل النزع تشريعيّ أم تكوينيّ؟! مقتضى المقابلة أن يكون الإيتاء والنزع من سنخ واحد، فإذا التزمنا بالإيتاء التشريعيّ، فينبغي الالتزام بالنزع التشريعيّ.

واذا أمكن التفكيك بين الإيتاء والنزع، فالأَوْلى أن يكون النزع تكوينيّاً، حيث إنّ المتسلّط لن يعجز الله -تعالى-، فهو القادر على نزع الملك منه إذا شاء، واقتضت حكمته ذلك.

﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾:

في القرآن الكريم الكثير من الموارد التي تنصّ على تعليق الأمور على مشيئة الله -تعالى-، فما معنى المشيئة الإلهيّة، وكيف تتعلّق مشيئته بالأشياء؟

الآيات القرآنيّة في المشيئة الإلهيّة

1. ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1].
2. ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

(1) سورة آل عمران، الآية 40.
(2) السورة نفسها، الآية 47.

3. ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

4. ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾[2].

5. ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[3].

6. ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[4].

7. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[5].

8. ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[6].

9. ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[7].

10. ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾[8].

11. ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[9].

12. ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[10].

---

(1) سورة المائدة، الآية 17؛ سورة النور، الآية 45.
(2) سورة الأنعام، الآية 133.
(3) سورة الرعد، الآية 39.
(4) سورة إبراهيم، الآية 27.
(5) سورة الحج، الآية 18.
(6) سورة النور، الآية 45.
(7) سورة القصص، الآية 68.
(8) سورة الروم، الآية 54.
(9) سورة فاطر، الآية 1.
(10) سورة الشورى، الآية 27.

13. ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[1].

14. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

15. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾[3].

16. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[4].

17. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5].

18. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[6].

19. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[7].

20. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾[8].

21. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[9].

22. ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[10].

---

(1) سورة الشورى، الآية 49.
(2) السورة نفسها، الآية 51.
(3) سورة الأعراف، الآية 155.
(4) سورة الأنعام، الآية 83.
(5) سورة يوسف، الآية 56.
(6) السورة نفسها، الآية 76.
(7) السورة نفسها، الآية 110.
(8) سورة الإسراء، الآية 18.
(9) سورة الأنبياء، الآية 9.
(10) سورة الحج، الآية 5.

23. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾[1].

24. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾[2].

25. ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[3].

26. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾[4].

27. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[5].

28. ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾[6].

29. ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾[7].

وفي الرواية عن: الْحُسَيْنُ بْنُ محمّد، عَنْ مُعَلَّى بْنِ محمّد، قَالَ: سُئِلَ الْعَالِمُ كَيْفَ عِلْمُ اللهِ؟ قَالَ: عَلِمَ، وَشَاءَ، وَأَرَادَ، وَقَدَّرَ، وَقَضَى، وَأَمْضَى، فَأَمْضَى مَا قَضَى، وَقَضَى مَا قَدَّرَ، وَقَدَّرَ مَا أَرَادَ، فَبِعِلْمِهِ كَانَتِ الْمَشِيئَةُ، وَبِمَشِيئَتِهِ كَانَتِ الْإِرَادَةُ، وَبِإِرَادَتِهِ كَانَ التَّقْدِيرُ، وَبِتَقْدِيرِهِ كَانَ الْقَضَاءُ، وَبِقَضَائِهِ كَانَ الْإِمْضَاءُ. وَالْعِلْمُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْمَشِيئَةِ، وَالْمَشِيئَةُ ثَانِيَةٌ، وَالْإِرَادَةُ ثَالِثَةٌ، وَالتَّقْدِيرُ وَاقِعٌ عَلَى الْقَضَاءِ بِالْإِمْضَاءِ... وَاللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَبِالْعِلْمِ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَبِالْمَشِيئَةِ عَرَفَ صِفَاتِهَا وَحُدُودَهَا، وَأَنْشَأَهَا

(1) سورة يس، الآية 66.
(2) السورة نفسها، الآية 67.
(3) سورة الشورى، الآية 52.
(4) سورة الزخرف، الآية 60.
(5) سورة محمّد، الآية 30.
(6) سورة الواقعة، الآية 65.
(7) السورة نفسها، الآية 70.

قَبْلَ إِظْهَارِهَا، وَبِالْإِرَادَةِ مَيَّزَ أَنْفُسَهَا فِي أَلْوَانِهَا وَصِفَاتِهَا، وَبِالتَّقْدِيرِ قَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَعَرَّفَ أَوَّلَهَا وَآخِرَهَا، وَبِالْقَضَاءِ أَبَانَ لِلنَّاسِ أَمَاكِنَهَا وَدَلَّهُمْ عَلَيْهَا، وَبِالْإِمْضَاءِ شَرَحَ عِلَلَهَا وَأَبَانَ أَمْرَهَا، وَذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»[1].

في الخلاصة: علم الله -سبحانه وتعالى- قديم، لا يشذّ عنه شيء، وقدرته واسعة لا يعجزه شيء، وهو حكيم لا يعبث، بيده الأمر كلّه، سلطانه مطلق، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون. فهو -تعالى- مطلق الإرادة ومطلق المشيئة، لكنّ ذلك لا يقتضي أبداً أن تتعلّق مشيئته بالأشياء جزافاً ومن دون قواعد تقتضيها الحكمة، فهو بحكمته لا يشاء إلّا ما يطابقها، وليس ذلك تحديداً لقدرته وسلطانه.

فهو يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، ويرزق من يشاء، ويؤتي الملك من يشاء، وينزعه عمّن يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، كما في الآيات التي استعرضناها، ولكنّه لا يشاء إلّا ما هو مطابق للحكمة.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾:

العزّ والذلّ

«العِزُّ في الأَصل: القوّة والشدّة والغلبة، والعِزُّ والعِزَّة: الرفعة والامتناع، والعِزَّة لله؛ وفي التنزيل العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص148 - 149.

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي له العِزَّة والغلبة -سبحانه-؛... وعَزَّ يَعِزّ، بالكسر، عِزّاً وعِزَّةً وعَزازَة، ورجل عَزيزٌ من قوم أَعِزَّة وأَعِزَّاء وعِزازٍ»[1].

وأمّا العزّة بمعنى الندرة[2]، فهو على ما يبدو مجاز من جهة أنّ الندرة توجب صعوبة المنال، وهو العزّة؛ أي النتيجة.

الذلّ ما يقابل العزّ، فمعناه الهوان والضعف، بحيث يُنال منه بيسر. والناقة الذلول المنقادة الطيّعة التي تخضع لسائسها، وقيل: الذلّ الخسّة، ولعلّه من أسباب الذلّ؛ لأنّ الخضوع والانقياد تارةً يكون من جهة الضعف والهوان، وتارةً من جهة الخسّة، وهي حقارة النفس التي تجعله يرضى بالهوان في سبيل الحصول على الحقير من الدنيا، ولكنّ التذلّل في محلّه وموقعه ممدوح[3]، وقد مدح الله ذلك كما في قوله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4]، ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص374.
(2) المصدر نفسه، ص376.
(3) راجع: الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج5، ص375.
(4) سورة المائدة، الآية 54.
(5) سورة الإسراء، الآية 24.

بيدك الخير

الخير مقابل الشرّ، وهو معروف، قال في اللسان: «الخَيْرُ: ضدّ الشرّ، وجمعه خُيور؛... تقول منه: خِرْتَ يا رجل، فأَنتَ خائِرٌ، وخارَ اللهُ لك؛... وهو خَيْرٌ منك وأَخْيَرُ؛... وخارَهُ على صاحبه خَيْراً وخِيَرَةً وخَيَّرَهُ: فَضَّله؛ ورجل خَيْرٌ وخَيِّرٌ، مشدّد ومخفّف؛... فإن أَردت معنى التفضيل قلت: فلانٌ خَيْرُ الناس ولم تقل أَخْيَرُ، لا يُثنّى ولا يُجمع؛ لأَنه في معنى أَفعل»[1].

وجملة ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ فيها دلالة على حصر الخير كلّه بيد الله -تعالى-؛ وذلك للتعريف الذي يفيد الاستغراق. وتقديم الخبر يفيد الحصر، فهو -تعالى- مصدر كلّ خير، ولا يفعل إلّا الخير.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

خُتمت بها الآية بمنزلة التعليل لِمَا تقدّم من الإيتاء والنزع والإعزاز والإذلال. وقدير فعيل من القدرة، وهي صيغة مبالغة.

تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل: «الولوج الدخول»[2]، والمعنى واضح، ورد في الحديث في تفسير هذه الآية روايات عدّة:

وقال الإمام الصادق عليه السلام بعد أن ذكر الليل والنهار: «**يلج أحدهما في الآخر، ينتهي كلّ واحد منهما إلى غاية معروفة محدودة في الطول والعرض، على مرتبة ومجرى واحد**»[3].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص264.
(2) ابن سيده، المخصّص، مصدر سابق، ج3، ص83.
(3) المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج3، ص165.

وفي أدعية الصحيفة: «**الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ بِقُوَّتِه، ومَيَّزَ بَيْنَهُمَا بِقُدْرَتِه، وجَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدّاً مَحْدُوداً، وأَمَداً مَمْدُوداً يُولِجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِه، ويُولِجُ صَاحِبَه فِيه بِتَقْدِيرٍ مِنْه لِلْعِبَادِ فِيمَا يَغْذُوهُمْ بِه، ويُنْشِئُهُمْ عَلَيْه**»[1].

وقد نصّ القرآن على هذا المعنى في مواضع عدّة أخرى، هي:

1. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[2].
2. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾[3].
3. ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾[4].
4. ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[5].

---

(1) الصحيفة السجّاديّة الكاملة للإمام زين العابدين عليه السلام، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1404هـ.ق - 1363هـ.ش، لا. ط، ص48.

(2) سورة الحجّ، الآية 61.

(3) سورة لقمان، الآية 29.

(4) سورة فاطر، الآية 13.

(5) سورة الحديد، الآية 6.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾:

الموت والحياة بالمعنى الحقيقيّ المعروف، بينهما تَقابُل، فخروج الميّت من الحيّ واضح وملموس، وأمّا خروج الحيّ من الميّت فلا بدّ من التذكير بأنّ الله -تعالى- خلق الإنسان من صلصال كالفخار، ونفخ فيه من روحه، كما أنّ جميع الأحياء في أصل الخلق كذلك لها منشأ مادّيّ خالٍ من الحياة قبل أن يبعث الله فيه الحياة. وقد فسّرت الروايات الموت والحياة في الآية بالكفر والإيمان.

ففي الرواية: عن ابن بابويه، قال: سُئل الحسن بن عليّ بن محمّد عليهما السلام عن الموت، ما هو؟ قال: «**هو التصديق بما لا يكون، إنّ أبي حدّثني، عن أبيه، عن جدّه الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ المؤمن إذا مات لم يكن ميّتاً، وإنّ الميّت هو الكافر، إنّ الله -عزّ وجلّ- يقول:** ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾، **يعني المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن**»[1]؛ فكأنّ الحياة مع الكفر لا قيمة لها، فهي موت واقعيّ وإن قام بالتحرّك والتنفّس ونبض القلب، قال -تعالى-:

1. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[2].

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص290 - 291.
(2) سورة الأنفال، الآية 24.

2. ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

الرزق قد لا يختص بالرزق المادّيّ، بل يشمل كلّ عطاء إلهيّ؛ كالعلم والمعرفة والهداية والسلامة في الجسم والدين والأمن والمكانة وغير ذلك.

وقد تكرّر في القرآن ذكر هذا المعنى:

1. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[2].
2. ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].
3. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[4].

(1) سورة الأنعام، الآية 122.
(2) السورة نفسها، الآية 95.
(3) سورة يونس، الآية 31.
(4) سورة الروم، الآية 19.

الآية (28)

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

اللغة: «(تقاة) أصله: وقاة، فأُبدلت الواو المضمومة تاء استثقالاً لها؛ لأنّهم يفرّون منها إلى الهمزة تارةً وإلى التاء أخرى. فأمّا التاء فلقربها من الواو مع أنّها من حروف الزيادة. وأمّا الهمزة فلأنّها نظيرتها في الطرف الآخر من مخارج الحروف مع حُسن زيادتها أوّلاً، ووزن (تقاة) فعله مثل تؤدة، وتخمة وتكأة، وهي مصدر اتّقى تقاة، وتقيّة، وتقوى، واتّقاء»[1].

البيان

بعد أن تكرّر في الآيات السابقة التأكيد على أنّ الله -تعالى- هو القويّ العزيز، وهو الذي بيده العزّة يُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، جاءت هذه الآية لتنهى المؤمنين عن تولّي الكافرين، حيث إنّ التولّي إنْ كان لطلب العزّة منهم فهي بيد الله وليست عند الكفّار؛ ولذلك تقول الآية:

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص 434 - 435.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾:

نهيٌ للمؤمنين عن اتّخاذ الكافرين أولياء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ في النصرة والمودّة؛ لقرابة أو محبّة أو صداقة أو ولاء قبل الإسلام[1]. والاتّخاذ فيه نوع من الثبات والإصرار على الولاء.

«و(مِنْ) لابتداء الغاية، و(دون) للمكان الذي هو قبل المكان الذي تضاف إليه. ثمّ شاع استعمالها في الكناية عن عدم الوصول بالشيء إلى ما تُضاف اليه وجعله في غيره. فالمراد: لا يعدل المؤمن بولايته عن المؤمنين إلى الكافرين ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ من رضى من الله أو لطف أو توفيق أو ولاية أو جزاء أو فضيلة إيمان، وغير ذلك ممّا يحظى به العبد الضعيف المحتاج من الله ربّه ومالك أموره.

يقال: هو من فلان في مقام ومكانة وحظوة، أو ليس منه في شيء من ذلك. ويُفهم من مناسبات المقام، أنّ هذا النهي وهذا التهديد جاريان في الموالاة الصوريّة ويتوهّم جريان النهي والتهديد فيها حتّى لو كانت للدفاع عن النفس واتّقاء الشرّ في بعض الأحيان، فاستدرك ذلك بقوله -تعالى-: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ -أيّها المؤمنون- مِنۡهُمۡ﴾؛ أي من الكافرين ﴿تُقَىٰةٗۗ﴾ (مصدر مفعول مطلق لـ: تتّقوا).

الاتّقاء والتقوى والتقيّة، والتاء فيها للوحدة ومأخذها الوقاية بأنْ تقي نفسك من محذور شيء بشيء آخر، كما يُقال: ضربه بسيفه، فاتّقاه بالدرقة، ووقى نفسه بها من محذوره. وتاء الوحدة

(1) راجع: البلاغيّ النجفيّ، آلاء الرحمان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص272.

تفيد تحديد الاتّقاء؛ أي إلّا أن تدفعوا شرّهم عنكم وعن دينكم عند انتظار الفرصة في نصره وإظهاره.

﴿ تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾:

موّقتة محدودة بأن تُظهروا لهم ما يدفع شرّهم من صورة الموالاة المؤقّتة، حيث لا مندوحة لكم إلى غير ذلك، ولا فائدة في نصر الدين بقتل الرجل، بل ينقص بقتله رجل من رجال الإسلام وأنصاره. ولا تسترسلوا في ذلك وتجاوزوا به مقدار الضرورة بحيث يرجع إلى الضعف في الدين والتساهل في أمره واستظهار الكافرين؛ فإنّ أمر الدين عظيم، فاحذروا -إذاً- من غضب الله وعقابه.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾:

ليس المراد بالنفس ما يرادف الروح المرتبطة بالبدن، بل ذاته العظيمة؛ فإنّه العزيز الجبّار الذي لا نصير عليه. وهو استعمال شائع في اللغة والقرآن الكريم، ومنه قوله -تعالى-: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1]. ومنه ما جاء من تعليق الظلم بالنفس؛ كقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[2]، ونحوه في أكثر من عشرين مورداً، ومنه ذكر الجهاد بالأموال والأنفس نحو عشر مرّات.

(1) سورة التحريم، الآية 6.
(2) سورة البقرة، الآية 57؛ سورة الأعراف، الآية 9؛ سورة التوبة، الآية 70؛ وغيرها.

فاحذروا الله؛ فإنّه شديد النكال، أليم العذاب، ولا تتساهلوا في أمر دينكم؛ فإنّ الدنيا فانية، وظلّ زائل، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ، فيوفي كلّ نفس ما عملت[1].

وهو يشبه التعاهد معهم على النصرة، ورابطة الولاية والمحبّة. هذا كلّه من دون المؤمنين؛ أي في قبالهم، وفي عكس مصالحهم، وهذا يعني وقوف المؤمنين في مواجهة بعضهم بعضاً لصالح عدوّهم، كما يفعل الكثير من الحكّام والجماعات في عصرنا الحاضر. ولا شكّ في أنّ هذا من أبرز مصاديق شقّ عصا المسلمين، ومفارقة جماعتهم، وما يترتّب عليه من الخروج من ربقة الإسلام، كما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[2]، وكما تنصّ هذه الآية: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾[3].

﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾:

تكرّر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة تعبير: من دون الله، ومن دون المؤمنين، ومن دون الناس، ومن دون ذلك، وهي تنصّ على الغيريّة التامّة. وقد تكون الغيريّة إلى حدِّ المقابلة والاستبدال، وهو ما يظهر من خلال استعراض الآيات التي استُعمل فيها تعبير من دون الله، ومن دون المؤمنين، وأمثال ذلك:

(1) البلاغيّ النجفيّ، آلاء الرحمان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص272 - 273.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص405: «عَنْ محمّد الْحَلَبِيّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: مَنْ فَارَقَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ».
(3) سورة آل عمران، الآية 28.

1 - ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

2 - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

3 - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[3].

4 - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4].

5 - ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[5].

6 - ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[6].

7 - ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[7].

---

(1) سورة البقرة، الآية 23.
(2) السورة نفسها، الآية 107.
(3) السورة نفسها، الآية 165.
(4) سورة آل عمران، الآية 64.
(5) السورة نفسها، الآية 79.
(6) سورة النساء، الآية 119.
(7) السورة نفسها، الآية 123.

8 - ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

9 - ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2].

10 - ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[3].

11 - ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[4].

12 - ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾[5].

13 - ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا

(1) سورة النساء، الآية 173.
(2) سورة المائدة، الآية 76.
(3) السورة نفسها، الآية 116.
(4) سورة الأنعام، الآية 56.
(5) السورة نفسها، الآية 70.

بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

14 - ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[2].

15 - ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[3].

16 - ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾[4].

17 - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[5].

18 - ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[6].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 71.
(2) السورة نفسها، الآية 108.
(3) سورة الأعراف، الآية 30.
(4) السورة نفسها، الآية 37.
(5) السورة نفسها، الآية 194.
(6) سورة التوبة، الآية 16.

19 - ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1].

20 - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[2].

21 - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[3].

22 - ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

23 - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[5].

24 - ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾[6].

25 - ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[7].

---

(1) سورة التوبة، الآية 31.
(2) السورة نفسها، الآية 116.
(3) سورة يونس، الآية 18.
(4) السورة نفسها، الآية 37.
(5) السورة نفسها، الآية 38.
(6) السورة نفسها، الآية 66.
(7) السورة نفسها، الآية 104.

26 - ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

27 - ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[2].

28 - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾[3].

29 - ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾[4].

30 - ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[5].

31 - ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[6].

32 - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[7].

33 - ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾[8].

---

(1) سورة يونس، الآية 106.
(2) سورة هود، الآية 13.
(3) السورة نفسها، الآية 20.
(4) السورة نفسها، الآية 101.
(5) السورة نفسها، الآية 113.
(6) سورة النحل، الآية 20.
(7) السورة نفسها، الآية 73.
(8) سورة الكهف، الآية 43.

34 - ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[1].

35 - ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾[2].

36 - ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾[3].

37 - ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾[4].

38 - ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[5].

39 - ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[6].

40 - ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾[7].

41 - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾[8].

42 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾[9].

---

(1) سورة مريم، الآية 48.
(2) السورة نفسها، الآية 49.
(3) السورة نفسها، الآية 81.
(4) سورة الأنبياء، الآية 66.
(5) السورة نفسها، الآية 67.
(6) سورة الأنبياء، الآية 98.
(7) السورة نفسها، الآية 12.
(8) السورة نفسها، الآية 71.
(9) السورة نفسها، الآية 73.

43 - ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾[1].

44 - ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾[2].

45 - ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣﴾[3].

46 - ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾[4].

47 - ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[5].

48 - ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾[6].

49 - ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[7].

50 - ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[8].

---

(1) سورة الفرقان، الآية 17.
(2) السورة نفسها، الآية 55.
(3) سورة الشعراء، الآيتان 92 - 93.
(4) سورة النمل، الآية 24.
(5) السورة نفسها، الآية 43.
(6) سورة القصص، الآية 81.
(7) سورة العنكبوت، الآية 17.
(8) السورة نفسها، الآية 22.

51 - ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[1].

52 - ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

53 - ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[3].

54 - ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[4].

55 - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[5].

56 - ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾[6].

57 - ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[7].

58 - ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم

---

(1) سورة العنكبوت، الآية 25.
(2) السورة نفسها، الآية 41.
(3) سورة الأحزاب، الآية 17.
(4) سورة سبأ، الآية 22.
(5) سورة فاطر، الآية 40.
(6) سورة يس، الآية 74.
(7) سورة الصافات، الآيتان 22 - 23.

مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[1].

59 - ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾[2].

60 - ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

61 - ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾[4].

62 - ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[5].

63 - ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾[6].

64 - ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾[7].

65 - ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[8].

---

(1) سورة الزمر، الآية 38.
(2) السورة نفسها، الآية 43.
(3) سورة غافر، الآية 66.
(4) السورة نفسها، الآيتان 73 - 74.
(5) سورة الشورى، الآية 31.
(6) السورة نفسها، الآية 46.
(7) سورة الزخرف، الآية 45.
(8) سورة الجاثية، الآية 10.

66 - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

67 - ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾[2].

68 - ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[3].

69 - ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾[4].

70 - ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾[5].

71 - ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾[6].

72 - ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[7].

73 - ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[8].

---

(1) سورة الأحقاف، الآية 4.
(2) السورة نفسها، الآية 5.
(3) السورة نفسها، الآية 28.
(4) سورة الممتحنة، الآية 4.
(5) سورة الملك، الآية 20.
(6) سورة نوح، الآية 25.
(7) سورة النجم، الآية 58.
(8) سورة البقرة، الآية 94.

74 - ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1].

75 - ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2].

76 - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾[3].

77 - ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[4].

78- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[5].

79 - ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ﴾[6].

80 - ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[7].

81 - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾[8].

---

(1) سورة الجمعة، الآية 6.
(2) سورة النساء، الآية 139.
(3) السورة نفسها، الآية 144.
(4) سورة الأعراف، الآية 81.
(5) سورة النمل، الآية 55.
(6) سورة المؤمنون، الآية 63.
(7) سورة الفتح، الآية 27.
(8) سورة الأحزاب، الآية 50.

من الآيات المتقدّمة، نستفيد أنّ «من دون» تأتي بمعنى «من غير»، الذي يفيد المغايرة التامّة في موارد يجب فيها العكس، حيث يجب أن يُعبد الله وحده، فإذا عبد غيره فهي عبادة من دونه، وحيث يجب على المؤمن تولّي المؤمنين، فإذا تولّى غيرهم فهو من دونهم، وهكذا...

روي أنّ ابن عبّاس قال: «نهى اللّه -سبحانه- المؤمنين أن يلاطفوا الكفّار، قال -تعالى-:

1. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا﴾[1].
2. ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[2].
3. ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].
4. ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[4].
5. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[5].
6. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[6].

(1) سورة آل عمران، الآية 118.
(2) سورة المجادلة، الآية 22.
(3) سورة الأنعام، الآية 68.
(4) سورة الأعراف، الآية 199.
(5) سورة التوبة، الآية 73؛ سورة التحريم، الآية 9.
(6) سورة المائدة، الآية 51.

ذلك كلّه يدلّ على أنّه ينبغي التعامل بالغلظة والجفوة دون الملاطفة والملاينة، إلّا ما وقع من النادر لعارض من الأمر»[1].

والذي نستفيده من آية سورة الممتحنة، التي تنصّ على جواز التعامل بالبرّ والقسط مع الكافرين غير المحاربين وغير المعادين، ممّا يعني ضرورة تخصيص ما نُقل عن ابن عبّاس من الشواهد بالمعادين المحاربين للمؤمنين.

قال -تعالى-: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

النظم

وجه اتّصال هذه الآية بما قبلها أنّه تعالى لمّا بيَّن عظيم آياته بما في مقدوراته ممّا لا يقدر عليه سواه، دلَّ على أنّه ينبغي أن تكون الرغبة في ما عنده وعند أوليائه من المؤمنين دون أعدائه الكافرين، فنهى عن اتّخاذهم أولياء دون أهل التقوى الذين سلكوا طريق الهدى. والوليّ هو الأَوْلى، وهو أيضاً الذي يلي أمر من ارتضى فعله بالمعونة والنصرة. وتجري على وجهين:

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص433 - 434.
(2) سورة الممتحنة، الآيتان 8 - 9.

أحدهما: المعين بالنصرة. والآخر: المُعان. فمن ذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي معينهم بنصرته، والمؤمن وليّ اللَّه؛ أي مُعان بنصرة اللَّه. وقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، يعني من اتّخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، الذي يعقد ولاءه لأعداء الله من دون المؤمنين، ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾، ليس من الله في أيّ شيء من الأشياء؛ أي أنّه تخلّى عن إطاعة أوامر الله وقطع علائقه مع الله، وانقطعت ارتباطاته من جميع الجهات، فهو ليس من أولياء الله، والله بريء منه ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾. التقيّة إظهار شيء من الكفر أو لوازمه باللسان، خلاف ما ينطوي عليه القلب من العقيدة الصحيحة والإيمان، للخوف على النفس؛ هذا إذا كان ما يبطنه هو الحقّ، فإنْ كان ما يبطنه باطلاً وما يُظهره على خلافه، كان ذلك نفاقاً»[1].

ومن المعروف أنّ المسلمين في المدينة المنوّرة كانت تربطهم بأهل الكتاب ومشركي المدينة روابط، ولهم علاقات جوار، ومصالح تجاريّة وزراعيّة، وربّما قرابات نسبيّة وسببيّة تؤدّي إلى أواصر محبّة ومودّة. وعندما تغيّرت الأحوال وتآمر هؤلاء على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المؤمنين، وقع المؤمنون في اختبار التضحية بعلاقاتهم ومصالحهم في سبيل نصرة الرسول ومن آمن معه، أو الخيانة والامتناع عن نصرة الحقّ؛ إبقاءً على الرابطة مع اليهود وغيرهم ممّن حارب الله ورسوله.

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص434.

فقوله -تعالى-: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾، استثناء من الحكم المذكور، وهو أنّه إذا اقتضت الظروف التقيّة، فللمسلمين أن يُظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم.

ولكنّ الآية تعود في الختام لتؤكّد الحكم الأوّل فتقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فالله ينذر الناس أوّلاً بغضب منه وبعقاب شديد، ثمّ إنّ مرجع الناس جميعاً إلى الله، وإنْ تولَّوا أعداء الله نالوا عاجلاً نتيجة أعمالهم.

التقيّة في الإسلام[1]

1 - العياشيّ: عن الحسين بن زيد بن علي، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليه السلام قال: «**كان رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **يقول: لا إيمان لمن لا تقيّة له، ويقول: قال الله:** ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾»[2].

2 - عليّ بن إبراهيم: «إنّ هذه الآية رخصة، ظاهرها خلاف باطنها، يُدان بظاهرها ولا يُدان بباطنها إلّا عند التقيّة؛ لأنّ التقيّة رخصة للمؤمن يُدين بدين الكافر، ويُصلّي بصلاته، ويصوم بصيامه إذا اتّقاه في الظاهر، وفي الباطن يُدين الله بخلاف ذلك»[3].

(1) راجع: السيد البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص607.
(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص166 - 167.
(3) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج1، ص100.

الآيتان (29-30)

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

التفسير

الآيتان مرتبطتان بما قبلهما على نحو التعقيب على تولّي الكافرين الظاهر أو المستور والواقع من دون المؤمنين أو الحاصل تقيّة. ولمّا كان ذلك في الغالب يرتبط بالنيّة، وما يخفيه من دافع، ولمّا حذّرهم الله -تعالى- نفسه وبيّن لهم خطورة الأمر، عقّب بالتذكير بعلمه واطّلاعه على ما يسرّون وما يعلنون، فهو لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كما أنّ قدرته شاملة عامّة.

الإخفاء في الصدر

كناية عن الإسرار في النفس، حيث يُعتبر الصدر مركز الأسرار، وقد تناولت الآية العلم بما في النفوس، والعلم بما في السماوات والأرض، والقدرة الواسعة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾:

تذكير بيوم القيامة ويوم الحساب، حيث يجد الإنسان أعماله محصاة حاضرة، فيُحاسَب عليها.

«قيل: في انتصاب يوم ثلاثة أوجه: أحدها: إنّه منصوب بـ(يُحذِّرُكُم) الله؛ أي يحذّركم نفسه (يَوْمَ تَجِدُ). الثاني: بالمصير، وتقديره: وإلى الله المصير (يَوْمَ تَجِدُ). الثالث: بتقدير: اذْكُر يَوْمَ تَجِدُ.

وقوله: (مَّا عَمِلَتْ) معنى (ما) هاهنا (الذي)؛ لأنّه عمل فيها (تَجِدُ) وتكون في موضع نصب. ويحتمل أيضاً أن تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر، وتقديره: يوم تجد كلّ نفس عملها، بمعنى جزاء عملها. وقوله: و(مَّا عَمِلَتْ) يجوز أن تكون (ما) بمعنى (الذي)، ويقوّي ذلك قوله: (تَوَدُّ) بالرفع ويجوز أن يكون بمعنى الجزاء، و(تَوَدُّ) على هذا يُحتمل أن يكون مفتوحاً أو مكسوراً. والرفع جائز على ضعف»[1].

لكن كيف تكون الأعمال حاضرة؟

على مبنى تجسّم الأعمال الأمر واضح، حيث تكون الأعمال بنفسها حاضرة متجسّمة وهو متّفق مع ظاهر الآية.

ويمكن على المبنى الآخر أن يكون المراد بحضورها إحصاءها في كتاب، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص437.
(2) سورة الكهف، الآية 49.

ويمكن أن يكون المقصود على وجه ثالث (يَوْمَ تَجِدُ) جزاء أعمالها، فعبّرت الآية عن الجزاء بالأعمال مجازاً؛ باعتبارها مسبّبة عنها، فأقام السبب مكان المسبَّب. والأوّل أظهر؛ لعدم حاجته إلى التأويل أو القرينة.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾:

﴿أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾

أي مسافة واسعة.

قوله -تعالى-: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾[1]، «الأمد هو نهاية البلوغ، وجمعه آماد، يُقال: بلغ أمده؛ أي بلغ غايته»[2].

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾:

عطف على ما عملت من خير؛ لتبيان أنّ الأعمال كلّها حاضرة، سواء كانت من خير أو من سوء، لكنّ ردّ فعل الإنسان على حضور العمل السيّئ يختلف، حيث يتمنّى أن لا يلاقيه ولا يجده حاضراً، ويودّ لو أنّ بينه وبين عمله مسافة بعيدة؛ لما ينتظره هناك من جزاء وعذاب لا قِبَل له بهما.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

عودة إلى التحذير الذي ذُكر في الآية السابقة، وهو تحذير

(1) سورة الحديد، الآية 16.
(2) الطريحيّ، مجمع البحرين، مصدر سابق، ج3، ص8.

من عذابه وأخذه، لكي يتذكّر الإنسان قبل فوات الأوان وانقضاء المهلة وضياع الفرصة. وهذا التحذير ينسجم تماماً مع كونه رؤوفاً بالعباد، فهو يريد لعباده أن يفوزوا بمرضاته عن طريق عبادته وطاعته، والابتعاد عن عبادة الشيطان، فمن ألطافه وعنايته ورحمته بعث الأنبياء، وأنزل الكتب، وسهّل سبل الهداية.

الآيتان (31-32)

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

وورد في الكافي: «**الْحُبُّ أَفْضَلُ مِنَ الْخَوْف**»[1].

في تفسير العياشيّ: عن زياد عن أبي عبيدة الحذّاء قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت: بأبي أنت وأمّي، ربّما خلا بي الشيطان فخبثت نفسي، ثمّ ذكرت حبّي إيّاكم وانقطاعي إليكم فطابت نفسي؟ فقال: «**يا زيّاد، ويحك! وما الدين إلّا الحبّ، ألا ترى إلى قوله -تعالى-:** ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾»[2].

وعن بشير الدهّان عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام قال: «**عرفتم فيَّ منكرين كثيراً، وأحببتم فيَّ مبغضين كثيراً، وقد يكون حبّاً لله وفي الله ورسوله، وحبّاً في الدنيا، فما كان في الله ورسوله فثوابه**

(1) الشيخ الكلينيّ، مصدر سابق، ج8، ص129.
(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص167.

على الله، وما كان في الدنيا فليس في شيء، ثمّ نفض يده، ثمّ قال: إنّ هذه المرجئة وهذه القدريّة وهذه الخوارج ليس منهم أحد إلّا وهو يرى أنّه على الحقّ، وأنّكم إنّما أحببتمونا في الله، ثمّ تلا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[2]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[3]، ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾»[4].

وعن بُريد بن معاوية العجليّ، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه قادم من خراسان ماشياً، فأخرج رجليه وقد تغلّفتا، وقال: أما -والله- ما جاءني من حيث جئت إلّا حبّكم أهل البيت، فقال أبو جعفر عليه السلام: «**والله لو أحبّنا حجر حشره الله معنا، وهل الدين إلّا الحبّ! إنّ الله يقول:** ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾[5]، **وهل الدين إلاّ الحبّ!**»[6].

كيف يتكوَّن الحبّ؟

الحبّ هو الانجذاب القلبيّ نحو المحبوب، وهو ينشأ من أحد أمرَيْن:

1- الشعور بالحاجة، والاعتقاد بأنّ لدى المحبوب سدّ تلك الحاجة.

(1) سورة النساء، الآية 59.
(2) سورة الحشر، الآية 7.
(3) سورة النساء، الآية 80.
(4) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص167.
(5) سورة الحشر، الآية 9.
(6) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص167.

2- الإعجاب والانبهار بالبُعد الكماليّ لدى المحبوب، كالجمال والقوّة والعظمة والهيبة وما شابه.

فالمدخل إلى تكوين الحبّ في قلب العبد تجاه مولاه وخالقه هو المعرفة، معرفة الله بجماله وكماله وجلاله، ومعرفة العبد لنفسه المتمحّضة بالفقر والحاجة والضعف والاستكانة، والتعلّق عندئذٍ بحبال محبّة الله لكماله وجلاله أو لغناه وقدرته ورحمته وجوده، وكلّه يوصل إلى المبتغى مع تفاوت في المسلك والمرتبة.

العلاقة بين المحبّة والانقياد

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾:

رُتّب الأمر باتّباع الرسول على محبّة الله كنتيجة طبيعيّة؛ وذلك لأنّ طاعة الرسول هي طاعة لله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]، ولأنّ العبد إذا أحبّ الله انجذب إليه انجذاب العاشق، وانجذاب الفقير للغنيّ، والمحتاج للواجد الجواد.

ولا يمكن التفكيك بين محبّة الله ومحبّة الرسول ﷺ؛ لأنّه رسول مبعوث من قِبَله، ومحبّة المرسل تسري إلى محبّة الرسول والرسالة.

روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، وَتَوَالِي أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَالتَّبَرِّي مِنْ أَعْدَاءِ الله**»[2].

(1) سورة النساء، الآية 80.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص125.

وعليه، فإنّ الإعراض عن الطاعة دليل فقدان المحبّة، وفقدان المعرفة الحقيقيّة اليقينيّة.

عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام يقول: «**ما أحبَّ الله -عزّوجلّ- مَن عصاه**»[1].

محبّة الله لعباده

ممّا لا يُشكّ فيه أنّ الله -تعالى- يحبّ عباده، فهم عباده، وهم مخلوقون له، أفاض عليهم من الوجود والرحمة والرزق والعطايا ابتداءً واستمراراً.

وثمّة محبّة أخرى مستحدثة تترتّب على طاعة العبد لمولاه، وإقباله عليه، والقيام بمقتضيات العبوديّة، وهو ما تتحدّث عنه الآية هنا: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

عطف المغفرة على المحبّة، وهي من نتائجها؛ وذلك لأنّ أحد تجلّيات المحبّة التجاوز عن الذنب، وقبول توبة العبد، كما أنّ التوبة ورجوع العبد الآبق إلى مولاه من نتائج محبّة العبد له، والاعتراف بالفقر والضعف والحاجة، الأمر الذي يحبّه المولى من عبده.

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط1، ص578.

وهو ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ومَن هذه صفته يغفر ويرحم، شرط التعرّض لهذه الرحمة من قِبَل العبد، وعدم الإعراض.

﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

أمر مجدّد بالطاعة، جمع بين طاعة الله وطاعة الرسول؛ لعدم وجود التفكيك بينهما، وليرتّب على ذلك النتيجة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فمن يتولّى ويعرض عن طاعة مولاه يخسر محبّته، وهو الخسران المبين.

واللافت هنا أنّه -تعالى- اعتبر الممتنعين عن طاعته وطاعة رسوله كافرين؛ إمّا لأنّ المراد هنا كفر المعصية، وإمّا لأنّ التولّي يستبطن الإعراض العمديّ الجحوديّ، والله أعلم.

الآيتان (33-34)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

اللغة: «الصفو نقيض الكدر، وصفوة كلّ شيء خالصه وخيره.. واستصفيت صفوة؛ أي أخذت صفو ماء من غدير.. والاصطفاء: الاختيار، افتعال من الصفوة، ومنه النبيّ المصطفى، والأنبياء المصطفون: إذا اختاروا، هذا بضمّ الفاء»[1].

(1) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج7، ص162 - 163.

في سورة الأعراف: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1].

وفي سورة البقرة في شأن طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾[2].

وفي سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾[3].

وفي سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾[4].

ذرّيّة: «وزن ذرّيّة فعليّة، مثل قمريّة. ويُحتمل أن يكون على وزن فعلولة. وأصله ذرورة، إلّا أنّه كره التضعيف، فقلبت الراء الأخيرة ياء، فصار ذروية، وقلبت الواو للياء التي بعدها ياء وأُدغمت إحداهما في الأخرى، فصار ذرّيّة. قال الزجّاج: والأوّل أجود وأقيس»[5].

في لسان العرب: «ذَرَّ الله الخلقَ في الأَرض: نَشَرَهُم، والذُّرِّيَّةُ فُعْلِيَّةٌ منه، وهي منسوبة إِلى الذَّرِّ الذي هو النمل الصغار، وكان قياسه ذَرِّيَّةٌ، بفتح الذال، لكنه نَسَبٌ شاذّ لم يجئ إِلَّا مضموم الأَوّل»[6].

«وذَرَا الله الخَلْق ذَرْواً: خَلَقهم، لغة في ذَرَأَ. والذَّرْوُ والذَّرَا والذُّرِّيَّة: الخَلْق، وقيل: الذَّرْوُ والذَّرَا عددُ الذُّرِّيَّة؛.. الذُّرِّيَّة تقع على الآباءِ والأَبْناءِ والأَوْلادِ والنِّسَاء. قال الله -تعالى-: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا

(1) سورة الأعراف، الآية 144.
(2) سورة البقرة، الآية 247.
(3) سورة فاطر، الآية 32.
(4) سورة البقرة، الآية 132.
(5) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص441.
(6) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص304.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[1]؛ أَراد آباءهم الذين حُمِلُوا مع نوح في السفينة»[2].

من هم آل ابراهيم ومن هم آل عمران؟

«المراد بآل إبراهيم وآل عمران خاصّتهما من أهلهما، والملحقين بهما على ما عرفت. أمّا آل إبراهيم فظاهر لفظه أنّهم الطيّبون من ذرّيّته؛ كإسحاق، وإسماعيل، وإسرائيل، والأنبياء من بني إسرائيل، وإسماعيل والطاهرون من ذرّيّته، وسيّدهم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، والملحقون بهم في مقامات الولاية، إلّا أنّ ذكر آل عمران مع آل إبراهيم يدلّ على أنّه لم يستعمل على تلك السَعة، فإنّ عمران هذا إمّا هو أبو مريم أو أبو موسى عليه السلام، وعلى أيّ تقدير هو من ذرّيّة إبراهيم، وكذا آله، وقد أخرجوا من آل إبراهيم، فالمراد بآل إبراهيم بعض ذرّيّته الطاهرين لا جميعهم»[3].

ورجّح صاحب الميزان أن يكون المراد من عمران والد مريم أم عيسى عليهما السلام[4].

روى العياشيّ عن حنان بن سدير عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ

(1) سورة يس، الآية 41.
(2) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص285 - 286.
(3) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص165 - 166.
(4) المصدر نفسه، ص167.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾، **نحن منهم، ونحن بقية تلك العترة**»[1].

وفي البرهان: عن الريان بن الصلت، قال: حضر الإمام الرضا عليه السلام مجلس المأمون، وقد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان، وذكر الحديث إلى أن قال فيه: قال المأمون: هل فضّل الله العترة على سائر الأمّة؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «**إن الله -عزّوجلّ- أبَانَ فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه**».

فقال المأمون: وأين ذلك من كتاب الله؟

فقال له الإمام الرضا عليه السلام: «**في قوله -عزّ وجلّ-:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾، قال: **يعني أنّ العترة داخلون في آل إبراهيم؛ لأنّ رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **من وُلد إبراهيم** عليه السلام»، وهو دعوة إبراهيم على ما ورد الحديث فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعترته منه صلى الله عليه وآله وسلم[2].

بماذا اصطفاهم؟

لقد عدّت الآية الاصطفاء بـ(على) وهو يختلف عن الاصطفاء المقطوع عن التعدية أو المتعدّي بـ(من)، فـ(على) تفيد الفوقيّة والولاية، فهو اصطفاء للولاية، والإمامة.

(1) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص168.
(2) راجع: السيد البحرانيّ، البرهان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص612؛ والرواية مذكورة في: الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص617.

لماذا ذكر آدم ونوحاً بالاسم وأشار إلى الباقين من الأنبياء بالآل؟

لعلّ ذلك لأنّ آدم ونوحاً عَمَّرا طويلاً، ولم يعلم إذا كان لآلهما من مقام الإمامة والولاية العامّة ما لهما، فاقتصر على ذكر اصطفائهما، وإن كان الوصف بنفسه لا يُشكّل دليلاً على نفي الاصطفاء عمّن سكت عنه هنا، فما ذُكر لا ينافي اصطفاء غير من ذكر من الأنبياء والرسل إذا ثبت في مكان آخر.

قال الشيخ الطوسي: «والآية تدلّ على أنّ الذين اصطفاهم معصومون منزّهون؛ لأنّه لا يختار ولا يصطفي إلّا من كان كذلك... فإذاً، يجب أن يختصّ الاصطفاء بآل إبراهيم وآل عمران من كان مرضيّاً معصوماً، سواء كان نبيّاً أو إماماً»[1].

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾:

عترة محفوظة من آدم إلى نوح إلى آل إبراهيم وآل عمران؛ ومن هنا تظهر النكتة في ذكر آدم ونوح مع آل إبراهيم وعمران، فهي إشارة إلى اتصال السلسلة في الاصطفاء.

في نصب ﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾ احتملان:

«**أحدهما:** أن يكون حالاً، والعامل فيها اصطفى.

والثاني: أن يكون على البدل من مفعول اصطفى»[2].

(1) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص442.
(2) المصدر نفسه، ص441.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

يسمع ما يقولون، وما يزعمون، وما ينكرون، ويحصيه ليحاسبهم به، عليم بما في نفوسهم من نوايا يخفونها، وبما يقومون به من أعمال. وقيل: سميع لقول امرأة عمران الآتي، عليم بما في بطنها.

الآيات تمهّد لسرد قصّة ولادة مريم والمسيح (عليهما السلام) في الآيات اللاحقة.

الآيات (35-37)

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

﴿إِذْ﴾:

ظرف زمانيّ يدلّ على ما مضى. وقيل فيما يتعلّق به (إذ) أربعة أقوال:

أحدها: إنّه محذوف، تقديره: اذكر إذْ قالت.

الثاني: إنّه متعلّق بـ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ آل عمران إذْ قالت.

الثالث: متعلّق بـ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إذْ قالت، فيعمل فيه معنى الصفتَيْن على تقدير مدرك لنيّتها وقولها إذْ قالت.

الرابع: إنّ (إِذْ) زائدة، فلا موضع لها من الإعراب. وهو غريب جدّاً[1].

«وامرأة عمران المذكورة في الآية هي أمّ مريم بنت عمران، وجدّة عيسى المسيح، وقيل إنّ اسمها كانت حنَّة»[2].

النذر

معروف. وقد عرّفه السيّد الطباطبائيّ قدس سره بأنّه: «إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب»[3].

محرّراً

«التحرير هو الإطلاق عن وثاق، ومنه تحرير العبد عن الرقيّة.. ومن المعلوم أنّ تحرير الأب أو الأمّ للولد ليس تحريراً عن الرقيّة، وإنّما هو تحرير عن قيد الولاية التي للوالدَيْن على الولد وافتراض طاعتهما، فبالتحرير يخرج من تسلّط أبوَيْه عليه في استخدامه. وإذا كان التحرير منذوراً لله -سبحانه- يدخل في ولاية الله يعبده ويخدمه؛ أي يخدم في الأماكن المختصّة بعبادته -تعالى- في زمان كان فيه تحت ولاية الأبوَيْن لولا التحرير، وقد قيل: إنّهم كانوا يُحرّرون الولد لله، فكان الأبوان لا يستعملانه في منافعهما، ولا يصرفانه في

(1) راجع: الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص442 - 443.
(2) المصدر نفسه، ص442.
(3) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص170.

حوائجهما، بل كان يُجعل في الكنيسة يُكنِسها ويخدمها، لا يبرح حتّى يبلغ الحُلُم، ثمّ يُخيّر بين الإقامة والرواح، فإنْ أحبَّ أن يُقيم أقام، وإنْ أحبَّ الرواح ذهب لشأنه»[1].

فالتحرير هنا الخلوص من القيود والحقوق التي تحدّ من قدرته على القيام بالتكليف الذي نُذِر له، خالصاً لله. وقيل في معنى «محرّراً» ثلاثة أقوال أخرى: أحدها: معناه خالصاً للعبادة. والآخر: خادماً للبيعة (المسجد). والثالث: عتيقاً من الدنيا لطاعة الله[2].

فأمّ مريم نذرت الجنين الذي كانت تحمله في بطنها ليكون خادماً للمسجد، محرّراً من حقوق الوالدَيْن (بخدمتهما)، وخالصاً لله، معتقاً من أيّ شركة وحقّ.

ورجّح بعض المفسّرين أن يكون عمران متوفّى ذلك الوقت، مستشهداً بكفالة زكريّا لها، ومصحّحاً بذلك إقدام الأمّ على نذر الولد دون الرجوع إلى الوالد[3]، وفيه الكثير من التكلّف، فالكفالة ربّما كانت بإذنه، ولم يذكر ذلك لعدم تعلّق غرض القصّة به، والكفالة ربّما كانت في الرعاية التربويّة والدينيّة.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

لمّا كان النذر لله، فتوقُّع القبول هو الأصل، ولكن خوفاً من

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص170.
(2) راجع: الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص443.
(3) راجع: العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص170.

وجود ما يمنع، دفع للسؤال والدعاء، مع إتْباعه بالوصف: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، تسمع دعائي وتعلم نيّتي وحالي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾:

الوضع

الولادة. وتأنيث الضمير لعودته على مريم، على الرغم من أنّها عند النذر ذكّرت الضمير واستعملت (ما) التي فيها إبهام من هذه الجهة، «وفي الكلام دلالة على أنّها كانت تعتقد أنّ ما في بطنها ذكر لا أنثى، حيث إنّها تناجي ربّها عن جزم وقطع من غير اشتراط وتعليق، حيث تقول: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ من غير أن تقول مثلاً: إنْ كان ذكراً، ونحو ذلك. وليس تذكير قوله: (مُحَرَّراً)، من جهة كونه حالاً عن (ما) الموصولة التي يستوي فيه المذكّر والمؤنث؛ إذ لو كانت نذرت تحرير ما في بطنها، سواء كان ذكراً أو أنثى، لم يكن وجه لما قالته تحزّناً وتحسّراً لمّا وضعتها»[1].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾:

جملة معترضة، بين قولها اعتذاراً: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وقولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، فالله -تعالى- أعلم بما وضعت، وقبل أن تضع، فهو المصوّر والخالق. و(أعلم) على وزن أفعل التفضيل، لكن ليس بالضرورة وجود اشتراك في الصفة دائماً، فقد تأتي في موارد يختصّ المفضل بالصفة، فيقول الجاهل إجابة عن

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص170 - 171.

السؤال: الله أعلم، والمراد هو العالم. وقد تقدّم معنا عند الكلام عن التفضيل بخير.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾:

تأكيد على التمايز في الاستعدادات والظروف والقدرات التي تؤدّي إلى التمايز في الدور والوظيفة ونمط التكليف.

وقد اختلف المفسّرون في قائل هذه الجملة: إنّها من تتمّة كلام امرأة عمران ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، أو من تتمّة كلام المولى -عزّ وجلّ-: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

وفي تقديم الذَكَر وجعله المشبّه، وتأخير الأنثى وجعلها مشبّهاً به، مع أنّ المورد هو أنثى وتقديمها وجعلها مشبّهاً هو الطبيعيّ، وجهان:

الأوّل: ما ذكره السيّد الطباطبائيّ قدس سره: «إنّ الذَكَر الذي كانت ترجوه لن يكون مثل هذه الأنثى التي وهبناها لها...، فهذه الأنثى ستتمّ بها كلمة الله، وتلد ولداً بغير أب، وتجعل هي وابنها آية للعالمين، ويكلّم الناس في المهد، ويكون روحاً وكلمة من الله، مثله عند الله كمثل آدم، إلى غير ذلك من الآيات الباهرات في خلق هذه الأنثى الطاهرة المباركة وخلق ابنها عيسى عليه السلام. ومن هنا يظهر أنّ قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، مقول له -تعالى- لا لامرأة عمران»[1].

والثاني: أن يكون البدء بالذَكَر من حيث كونه هو المنتظر من جهتها والمنذور بالواقع، فهو ليس كالأنثى التي ولدت في إمكانيّة أداء

(1) العلّامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج3، ص172.

النذر على أكمل وجه. هذا مبنيّ على كون الجملة من تتمّة كلام امرأة عمران[1].

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾:

مريم

اسم؛ قيل أعجميّ، وقيل هو عربيّ مشتقّ من ريّم بالمكان: أقام به[2].

أعيذها

عذت بفلان، واستعذت به؛ أي لَجَأْتُ إليه. والله -عزّ وجلّ- معاذ من عاذ به، وملجأُ من لجأَ إليه[3].

هل يدلّ ذكر الذرّيّة في الاستعاذة على أنّها تعتقد جزماً بأنّها سيكون لها ذرّيّة أو هو على نحو الترجّي فقط، وجهان ليس في النصّ قرينة على أيّ منهما، وإن ذهب إليه بعض أهل التفسير.

الشيطان

معروف، وهو فيعال من شطن؛ أي: بعُد، وشَطَنَ عنه: بَعُدَ[4].

(1) راجع: الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص444 - 445.
(2) راجع: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، لا.م، 1404هـ، ط2، ص467؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص259؛ المقري الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، لا.ط، ج1، ص249، وغيرها من المصادر.
(3) راجع: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص498.
(4) راجع: الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج6، ص237.

«بئر شَطُونٌ: بعيدة القعر في جِرابها عِوَجٌ. وحربٌ شَطُونٌ: عَسِرةٌ شديدة.. ورمح شَطونٌ: طويل أَعوج... والشَّطَنُ: الحَبْل، وقيل: الحبل الطويل الشديدُ الفَتْل، يُسْتَقى به، وتُشَدُّ به الخَيْل، والجمع أَشْطان.. وشَطَنْتُه أَشْطُنه إذا شَدَدْته بالشَّطَن»[1].

الرجيم

المرجوم، والشيطان رجيم: مرجوم ملعون. وأصل الرجم: الرمي بالحجارة[2].

«والرَّجْمُ: اللعن، ومنه الشيطان الرَّجِيمُ؛ أَي المَرْجُومُ بالكَواكب، صُرِفَ إِلى فَعِيلٍ من مَفْعُولٍ، وقيل: رَجِيم ملعون مَرْجوم باللعنة، مُبْعَدٌ مطرود. ويكون الرَّجيمُ بمعنى المَشْتُوم المَسبوب من قوله -تعالى-: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ أَي لأَسُبَّنَّكَ»[3]، وهو نوع من القذف بالمسبّة.

والاستعاذة بالله -تعالى- لكونه الملجأ والملاذ والكهف الحصين، من التجأ إليه تحصّن من همزات الشياطين والإغواء والتغرير، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[4]، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[5]. والاستعاذة القوليّة ليست كافية ما لم يُصاحبها استعاذة عمليّة بإرادة جدِّيَّة، كما هو واضح.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص237 - 238.
(2) راجع: الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج6، ص119.
(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص227.
(4) سورة الحجر، الآية 42.
(5) سورة النحل، الآية 99.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾:

لمّا كان النذر يُراد به وجه الله، فالقَبول تعبير عن تحقّق المراد، ودليل على أنّ النذر كان صادراً عن نيّة خالصة، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

قال الشيخ الطوسيّ: «رضيها في النذر الذي نذرته بالإخلاص للعبادة في بيت المقدس، ولم يقبل قبلها أنثى في ذلك المعنى»[2].

فامرأة عمران عندما ناجت ربّها معتذرة؛ لكونها وضعتها أنثى، اقتضى ذلك الإخبار عن قَبول نذرها لمريم من قبل الباري -عزّ وجلّ-. والقَبول الحسن هو القبول الذي لا نقص فيه، بل هو أحسن القبول.

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾:

من مظاهر القَبول الرعاية والإنبات الحسن المتناسب مع موجبات الوصول إلى إخلاص الطاعة والعبادة عن طريق تيسير الكفالة والرعاية الخاصّة التي تكفّل بها زكريّا.

استعمل القرآن مصطلح الإنبات الذي يتضمّن الرعاية التامّة التي تؤدّي بالنبتة إلى بلوغ غايتها، ويدخل فيه إيجاد شروط المنبت الصالح والحياطة ودفع المخاطر التي توجب الفساد. وفي بعض الروايات استعمال للمصطلح نفسه، كما في قوله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**

(1) سورة المائدة، الآية 27.
(2) الشيخ الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج2، ص446.

إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ؟ قَالَ: «الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي مَنْبِتِ السَّوْءِ»[1].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾:

هو الموضع الذي يُخصّص للعبادة. قال الخليل في العين: «والمحراب عند العامّة اليوم: مقام الإمام في المسجد. وكانت محاريب بني إسرائيل مساجدهم التي يجتمعون فيها للصلاة. والمحراب: الغرفة (قال امرؤ القيس: كغزلان رمل في محاريب أقيال)»[2].

«وذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم أوجهاً كثيرة، أوجهها ثلاثة: أحدها: إنّ المحراب من (الحرب) سُمّي بذلك؛ لأنّه موضع محاربة الشيطان والأهواء. والآخر: إنّ المحراب صدر المجلس، ثمّ أُطلق -يضاً- على صدر المعبد. (كان بناء المحراب عند اليهود يختلف عن بنائه عندنا، فأولئك كانوا يبنون المحراب مرتفعاً عن سطح الأرض بدرجات عدّة بين حائطَيْن مرتفعَيْن يحفظانه، بحيث كانت تصعب رؤية من بداخل المحراب من الخارج). والثالث: إنّه يُطلق على المعبد كلّه، وهو المكان الذي يُخصّص للعبادة ومجاهدة النفس والشيطان»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج5، ص332.
(2) الفراهيديّ، العين، مصدر سابق، ج3، ص214.
(3) الشيخ الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج2، ص482 - 483.

وهذا الذي حكته الآية أيضاً من دلائل النبات الحسن والرعاية الإلهيّة الخاصّة، سواء من جهة الرزق غير المحتسب، أو من جهة الإقرار بأنّه من عند الله، وعدم نسبته إلى الأسباب الظاهريّة، سواء كان يأتيها عبر أشخاص يُسخّرهم الله -تعالى- لهذا الأمر، أو بطريقة خارجة عن المألوف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾:

ربّما كان حكاية عن قول مريم، وربّما كان إخباراً مستأنفاً لتبيان فلسفة وصول الرزق لمريم، والأرجح الأوّل ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، من حيث الاستحقاق أو عدمه، ومن حيث الكمّ والكيف والأسباب وما شابه.

الآيات (38 - 40)

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾:

﴿هُنَالِكَ﴾:

إشارة إلى ما حكاه من دخول زكريّا محراب العبادة على مريم، ووجدان الرزق، وما دار من حوار؛ ممّا يكشف عن منزلة مريم وصفاء نفسها، وممّا يُثير في نفس الإنسان الرغبة الفطريّة في

الذرّيّة الصالحة على هذا النحو؛ ومن هنا كان دعاء زكريّا ليس طلباً لمطلق الذرّيّة، وإنّما الذرّيّة الطيّبة، ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وفي سورة مريم حكى قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[1].

روي عن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قال: «**مَا سَأَلْتُ رَبِّي أَوْلَاداً نَضِرَ الْوَجْهِ، وَلَا سَأَلْتُهُ وَلَداً حَسَنَ الْقَامَةِ، وَلَكِنْ سَأَلْتُ رَبِّي أَوْلَاداً مُطِيعِينَ لِلَّهِ، وَجِلِينَ مِنْهُ، حتّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُطِيعٌ لِلَّهِ قَرَّتْ عَيْنِي**»[2]. الرواية، على الرغم من اضطراب المتن في الإفراد والجمع الذي نرجّح أن يكون من الراوي، إلّا أنّ المقصد واضح جدّاً.

﴿طَيِّبَةً﴾:

الطيبة الحقيقيّة بالخلوص من الرجس وإخلاص العبوديّة لله، وهو ما وصفه الإمام عليّ عليه السلام في الرواية المتقدِّمة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

البشارة

الإخبار بما يبعث على السرور، وهو هنا استجابة الدعاء، وإعطاء الذرّيّة الطيّبة.

(1) سورة مريم، الآية 6.
(2) العلاّمة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج101، ص98.

والحَصُور

من لا إربة له في النساء، أو الذي لا يأتي النساء لعيٍّ أو غير ذلك[1].

وفي الآية طيّ، حيث وقعت البشارة بيحيى، فلم يقل بغلام اسمه يحيى، بينما في سورة مريم قال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[2]، وعلى الرغم من أنّ الدعاء يستوجب انتظار الاستجابة، خاصّة أنّ الداعي يُدرك تماماً مَن يدعو، وكيف يدعو، وأثر الدعاء، ومع ذلك كان للبشارة أثرها الكبير على زكريّا؛ نظراً إلى كِبَر سنّه وعقم زوجته، لكنّ السؤال أنّه عند دعائه كان ملتفتاً إلى هذه العوامل والأسباب التي لا تقتضي -بحسب العادة- حصول الحمل والإنجاب، وهو ما جاء في صريح الدعاء حسب آيات سورة مريم. فلماذا يسأل عند البشارة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾! فلعلَّ هذا من باب الاندهاش بالعناية الخاصّة والكرامة الجديدة، وليس من باب الاستفهام الحقيقيّ الذي يُستبعد جدّاً من نبيّ.

وذكر السيّد الرضيّ قدس سره في حقائق التأويل وجهاً آخر، فقال: «قال زكريّا ذلك مع أنّه دعا الله أن يرزقه الذرّيّة والوليّ الوارث، إمّا طلباً للاطمئنان بالبشرى؛ لأنّ ذلك على خلاف العادة في التناسل من مثلهما؛ وإمّا شكراً واعترافاً بنعمته في إجابة دعائه، على خلاف العادة الجارية في التناسل، بمعنى إنّي وامرّاتي في مثل هذه الحال،

(1) راجع: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص194.
(2) سورة مريم، الآية 7.

فمن أين يكون لي غلام لولا قدرتك ورحمتك وعنايتك الخاصّة الخارقة للعادة في إجابة دعائي!»[1]. وهو وجيه لو ساعد عليه شيء من القرائن أو النصوص المفسّرة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾:

تأكيد على إرادة الله، وقدرته، وإعمال مشيئته بالأسباب الظاهريّة وبغيرها، فهو مُسبِّب الأسباب، لا تحكم مشيئته تلك الأسباب قطعاً. وليست ولادة العاقر بأغرب من الولادة من غير أب أو الخلق من تراب من دون رحم أنثى بالمطلق.

(1) نصّ العبارة حكاها بتصرّف: البلاغيّ النجفيّ، آلاء الرحمان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص281؛ وقد ذكر الشريف الرضيّ في حقائق التأويل 5 وجوه لدفع الإشكال، فراجع: الشريف الرضيّ، محمّد الرضيّ بن الحسن، حقائق التأويل، شرح: محمّد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط، ص89 - 93.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الكوفيّ، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفيّ، تحقيق: محمّد الكاظم، مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ، إيران - طهران، 1410هـ.ق - 1990م، ط1.
3. الكلينيّ، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: عليّ أكبر الغفاريّ، دار الكتب الإسلاميّة، إيران - طهران، 1363ش، ط5.
4. العياشيّ، محمّد بن مسعود، تفسير العياشيّ، تحقيق: الحاج السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، إيران - طهران، 1422هـ.ق، ط1.
5. البحرانيّ، السيّد هاشم الحسينيّ، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، إيران - قم، لا. ت، لا. ط.
6. الطبرسيّ، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصائيّين، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1.

7. الطبرانيّ، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفيّ، دار إحياء التراث العربيّ، لا. م، لا. ت، ط2.
8. ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد، دار صادر، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط.
9. الطبريّ، محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، لا. ط.
10. الطباطبائيّ، العلّامة السيّد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط5.
11. المجلسيّ، العلامة محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، تحقيق: السيّد إبراهيم الميانجيّ؛ محمّد الباقر البهبوديّ، مؤسّسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ.ق - 1983م، ط2.
12. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1379هـ.ق - 1338 ش، لا. ط.
13. القمّيّ، عليّ بن إبراهيم، تفسير القمّيّ، تصحيح وتعليق وتقديم: السيّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ.ق، ط3.

14. الشريف الجرجانيّ، الحاشية على الكشّاف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، عبّاس ومحمّد محمود الحلبيّ وشركاهم - خلفاء، 1385 - 1966م، لا. ط.
15. البرقيّ، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسينيّ، دار الكتب الإسلاميّة، إيران - طهران، 1370هـ.ق - 1330 ش، لا. ط.
16. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، مدرسة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، إيران - قم المقدّسة، ربيع الأول 1409هـ.ق، ط1.
17. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1379هـ.ق - 1338 ش، لا. ط.
18. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، التوحيد، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، لا. ت، لا. ط.
19. الفرّاء، يحيى بن زيّاد، تحقيق: أحمد يوسف النجاتيّ؛ محمّد عليّ النجار؛ عبد الفتّاح إسماعيل الشلبيّ، دار المصريّة للتأليف والترجمة، مصر، لا. ت، ط1.
20. الشيرازيّ، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، لا. ن، لا. م، لا.ت، لا. ط.
21. الطريحيّ، الشيخ فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيّد

أحمد الحسينيّ، نشر مرتضويّ، لا. م، 1362 ش، ط2.
22. ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران - قم، 1405هـ.ق، لا. ط.
23. الطوسيّ، الشيخ محمّد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العامليّ، مكتب الإعلام الإسلاميّ، لا. م، 1409هـ.ق، ط1.
24. السمرقنديّ، نصر بن محمّد، بحر العلوم، تحقيق: د. محمود مطرجيّ، دار الفكر، لا. ت، لا. ط.
25. الجصّاص، أحمد بن عليّ، أحكام القرآن، تحقيق: عبد السلام محمّد عليّ شاهين، دار الكتب العلميّة، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1.
26. الفيض الكاشانيّ، المولى محمّد محسن، التفسير الأصفى، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلاميّة، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ، 1418هـ.ق - 1376 ش، ط1.
27. الفراهيديّ، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهديّ المخزوميّ؛ الدكتور إبراهيم السامرائيّ، مؤسّسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ.ق، ط2.
28. ابن الأثير، المبارك بن محمّد الجزريّ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاويّ؛ محمود محمّد الطناحيّ، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1364ش، ط4.
29. مغنيّة، الشيخ محمّد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، 1981م، ط3.

30. الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح: الشيخ حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1404هـ.ق - 1984م، لا. ط.
31. الطباطبائيّ، العلّامة السيّد محمّد حسين، القرآن في الإسلام، تعريب: السيّد أحمد الحسينيّ، لا. ن، لا. م، لا. ت، لا. ط.
32. الشريف الرضيّ، السيّد محمّد الرضيّ بن الحسن، نهج البلاغة (خطب الإمام عليّ عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، لا. ن، لبنان - بيروت، 1387هـ.ق - 1967م، ط1.
33. رشيد رضا، السيد محمّد، تفسير المنار، دار المنار، مصر، 1367هـ، ط3.
34. الهلاليّ الكوفيّ، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس، تحقيق: محمّد باقر الأنصاريّ الزنجانيّ، نشر دليل ما، إيران - قم، 1422هـ.ق - 1380ش، ط1.
35. الصفّار، محمّد بن الحسن، بصائر الدرجات، تصحيح: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، منشورات الأعلميّ، إيران - طهران، 1404هـ.ق - 1362ش، لا. ط.
36. مالك، مالك بن أنس، المدوّنة الكبرى، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط.
37. الحويزيّ، الشيخ عبد عليّ بن جمعة، تفسير نور الثقلين، تصحيح وتعليق: السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1412هـ.ق - 1370هـ.ش، ط4.
38. الثعلبيّ، أبو محمّد بن عاشور، الكشف والبيان عن تفسير

القرآن (تفسير الثعلبيّ)، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربيّ، 1422هـ.ق - 2002م، ط1.
39. الحلواني، الحسين بن نصر، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، إيران - قم المقدسة، 1408هـ.ق، ط1.
40. ابن سيده، عليّ بن إسماعيل، المخصّص، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربيّ، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط.
41. الواحديّ النيسابوريّ، علي بن أحمد، أسباب نزول الآيات، مؤسّسة الحلبيّ وشركاه للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة، 1388هـ.ق - 1968م، لا. ط.
42. البلاغيّ النجفيّ، محمّد جواد، آلاء الرحمان في تفسير القرآن، لا.ن، لا.م، 1352هـ.ق - 1933م، لا.ط.
43. الدرويش، محي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير؛ دار اليمامة، دمشق - بيروت، 1412هـ.ق - 1992م، ط3.
44. ابن طاووس، السيّد عليّ بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، كتابخانه سنائى، لا. م، لا. ت، لا. ط الزمخشريّ، محمود، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة ومطبعة الحلبيّ، مصر، 1385هـ.ق - 1966م، لا. ط.
45. الصحيفة السجّاديّة الكاملة للإمام زين العابدين عليه السلام، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرّفة، إيران - قم، 1404هـ.ق - 1363هـ.ش، لا. ط.

46. الصدوق، محمّد بن عليّ، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ.ق، ط1.
47. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، لا.م، 1404هـ، ط2.
48. المقري الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، لا.ط.
49. الشريف الرضيّ، محمّد الرضيّ بن الحسن، حقائق التأويل، شرح: محمّد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط.